

رئيس مجلس الإدارة :
إبراهيم سعده
رئيس التحرير :
الدكتور رفعت كمال
الإشراف الفنى والغلاف :
خالد فرحات



تربية الأبناء علم له أصول !

بقلم الدكتور : **سعيد إسماعيل على**
أستاذ أصول التربية بجامعة عين شمس

العدد [١٦٥]

أسعار كتاب اليوم في الخارج

الجماهيرية العظمى	١	دينار
المغرب	١٥	درهم
لبنان	٢٥٠٠	ليرة
الأردن	١٥٠٠	فلس
العراق	٧٠٠٠	فلس
الكويت	٧٥٠	فلس
السعودية	١٠	ريالات
السودان	٢٢٠٠	قرش
تونس	٢	دينار
الجزائر	١٧٥٠	سنتيما
سوريا	٧٥	ل. س
الحبشة	٦٠٠	سنت
البحرين	١	دينار
سلطنة عمان	١	ريال
غزة	١٥٠	سنت
ج. اليمنية	١٥٠	ريال
الصومال نيجريا	٨٠	بنى
السنغال	٦٠	فرنك
الإمارات	١٠	درهم
قطر	١٠	ريال
انجلترا	١,٧٥	جك
فرنسا	١٠	فرنك
ألمانيا	١٠	مارك
إيطاليا	٢٠٠٠	ليرة
هولندا	٥	فلورين
باكستان	٣٥	ليرة
سويسرا	٤	فرنك
اليونان	١٠٠	دراخمة
النمسا	٤٠	شلن
الدنمارك	١٥	كرون
السويد	١٥	كرون
الهند	٢٥٠	روبية
كندا أمريكا	٣٠٠	سنت
البرازيل	٤٠٠	كروزيرو
نيويورك واشنطن	٣٥٠	سنتا
لوس انجلوس	٤٠٠	سنت
استراليا	٤٠٠	سنت

● الاشتراكات ●

جمهورية مصر العربية

قيمة الاشتراك السنوى ٣٠ جنيها مصريا

البريد الجوى

دول اتحاد البريد العربى ٢٠ دولارا

اتحاد البريد الافريقى ٢٥ دولارا

أمريكيا أو ما يعادله

أوربا وأمريكا ٣٠ دولارا

أمريكا الجنوبية واليابان واستراليا

٤٠ دولارا أمريكيا أو ما يعادله

● ويمكن قبول نصف القيمة عن ستة شهور

● ترسل القيمة إلى الاشتراكات

٣ (أ) ش الصحافة

القاهرة ت : ٥٧٨٢٧٠٠ (٥ خطوط)

●فاكس : ٥٧٨٢٥٤٠

مقدمة

بالنسبة لعامة القراء، ليس غريبا أن يكتب مثلى كتابا عن تربية الطفل، ذلك أن (التربية) فى نظرهم.مجال واحد،وبالتالى فهو حق لكل المتخصصين فيه.

لكن الأمر يختلف بالنسبة لهؤلاء المتخصصين، ذلك لأن التربية عندهم مجال واسع، يضم العديد من التخصصات التى قد لاتخطر على البال، ولكل تخصص علماؤه وأساتذته الذين يحاولون أن يحددوا أنفسهم بدائرة ضيقة يقتصرون فيهـا على مايدخل فى التخصص.

لقد أصبح الأمر مشابها إلى حد كبير لمجال الطب.. فليس هناك علم اسمه (الطب)، وإنما هو مجال واسع يضم عشرات العلوم، ولكل منها علماؤها وخبراؤها.

وكثيرا ما كان يتصل بى بعض الصحفيين يسألوننى فى مسائل تخص عالم الطفولة، فأعتذر لهم مرددا أنى لست متخصصا، وأحيلهم إلى زملاء فى علم النفس، وتظهر على هؤلاء الصحفيين الدهشة وعدم الاقتناع: ألسنا كلنا (تربية) كما نقول: (كله عند العرب صابون).

إلى أن أنعم الله على بأحفاد صرت أمضى معهم أمتع أوقاتى وأحلى لحظات حياتى.. وعلى الرغم من سابق مرورى بخبرة تربية الأطفال فى ولدىَّ، لكننى، مع الأحفاد وجدت المذاق مختلفا، والرأى له زوايا أخرى.

كنت وأنا أربى ولدىَّ فى أواخر العشرينات وأوائل الثلاثينات من عمرى، يغلب على طريقتى ومنهجى أن يكون ولدىَّ (كما أريد) وبشىء من الحزم والحسم.

لكننى الآن وأنا اقترب مـن الستين.. أجد نفسى أسهم فى تـربية أحفادى ، لا كما نريد نحن الكبار ، وإنما وفقا لما هم عليه.

كانت حصيلتى العلمية التربوية وأنا أربى ولدىّ فى بداياتها، أما الآن وأنـا مع حفيدىّ تقف ورائى حصيلـة ست وثلاثين سنـة من العمل العلمى التربـوى فى مختلف زواياه وجـوانبـه.ومع ضخامـة هذه الحصيلة، دفعنى الحفيدان إلى إعـادة النظر فى هذا العالم الذى لم أكن أقـربه إلا قليـلا.. عالم الطفـولة، فإذا بنظـراتى وتفسيراتى وزوايا رؤيتى تجعلنى أفهم هذا العالم فهما مختلفا إلى حد كبير.

وشعـرت أن هنـاك مســائل وقضـايا ملحـة لابـد أن يعـرفهـا الآباءوالأمهات.. مسائل وقضايـا ـ إذا قسنا على مجال الطب، أقرب إلى أن تكون (إسعافات أولية ضرورية)، فمن المسلم به أننا لانطلب من سائر الناس أن يكونـوا أطباء، ولكنا نلح عليهم بضرورة التزود ببعض الأســاسيـات التى تختصر الطـريق على الطبيب.. نطلب من الناس (وعيا صحيا).

هكـذا نحن فى عـالم الطفولـة.. لانـدخل بـالقارىء فى (فنيـات) و(دهـاليز) و(أروقـة) تخصص له علماؤه وكتبه ودراساته التى تحتاج إلى نمط آخر من الكتابة.

وإنما نـدخل به عـالم (أساسيـات) لابد منهـا فى تربيـة الطفل (عموميـــات) لا غنى عن معـرفتهـا تساعده أن يكـون على (وعى تربوى).

مدرسة الحياة

تعالوا بنا ندخل هذه المدرسة.

لا تتردد متسائلا: وهل بعد أن شبنا نذهب إلى المدرسة؟!

ذلك أننى سأرد عليك فورا: ولم لا؟

إنها ليست مدرسة من تلك المدارس ذات الأسوار والأجراس والفصول و(التخت) والسبورات والطباشير والمعلمين المتخصصين المتفرغين والكتب المقررة والامتحانات التى تعقد فيها والموجهين الذين (يفتشون).. وهكذا.

إنها مدرسة بلا جدران.. جدرانها هذا الغلاف الجوى المحيط بالأرض، لأنها تتسع باتساع الكرة الأرضية.

وكل بقاع الأرض فصولها.

وكل ماهو على سطح الأرض يشارك فى تعليمنا.

وامتحاناتها تعقد كل يوم، وربما كل ساعة!! نتائجها تعلن ـ غالبا ـ فى الحال وفورا.

إنها لاتشترط (مؤهلات) معينة لابد من الحصول عليها للالتحاق بها.. يكفى شهادة الميلاد واستمرار الحياة.

كما أنها لاتشترط سنا معينة، ذلك أن شعارها هو (من المهد إلى اللحد)، أى نبدأ فيها منذ تلك اللحظة التى نخرج فيها إلى الدنيا، إلى تلك اللحظة التى نفارقها فيها.. لا، بل إنها يمكن أن تبدأ معك حتى قبل أن تولد!!

إنها مدرسة الحياة.

انظر إلى هذا الحيوان أو ذاك من أى فئة تختارها.

ليكن الحيوان المختار ـ مثلا ـ هو القط، وراقب سلوكه الذى يمارسه هذه الأيام، وحاول أن ترجع بخيالك إلى مئات، بل آلاف من السنين مضت، اسأل نفسك: هل حفظت الآثار والدراسات التاريخية عن سلوك القطط قديما مايختلف بها عما هى عليه الآن؟

أنا أجيبك: كلا.. إنه نفس السلوك.

وانتقل على الفور إلى حالك أنت، وقارن بين سلوكك وسلوك أبيك، إذا كان على قيد الحياة وسلوك ابنك، سوف تجد اختلافا واضحا بينكم أنتم الثلاثة.

واقفز بذاكرتك إلى قرون مضت مما سمعت أو قرأت عن حال الإنسان من قبل، سوف ترى اختلافا رهيبا بين الأمس واليوم. ترى لماذا؟

إنه هذا الساحر العجيب حقا.. التعليم!

الحيوان منذ آلاف السنين قد يقع فى خطأ يصاب فيه بجروح، أو بفقدان مأواه، أو يسبب له الجوع، أو غير هذا وذاك من الأضرار، وتمر القرون بعضها إثر بعض، ويكرر خلف هذا الحيوان نفس السلوك الخاطىء، لأن (السلف) لايستطيع أن (يعلم) الخلف حصيلة الخبرة فيستفيد ويتحاشى ارتكاب الخطأ.

وهكذا نفس الحال، إذا أحسن فى تصرف له جلب له مزيدا من الخير: طعام، مأوى، راحة.. إلخ.

وهكذا يجىء اليوم مطابقا للأمس، وسوف يجىء الغد مطابقا لليوم.. فرصيد الخبرة يتبخر ويتلاشى بانتهاء كل موقف، فلا يتراكم، كما يتراكم رصيد المال فى الجيوب أو البنوك، هذا الرصيد الذى يتيح تزايده مزيدا من الأنشطة، ومزيدا من القوة والتقدم، والعكس صحيح.. إذا جمد أو تلاشى.

وما هكذا حال الإنسان.

ما من خبرة إلا ويسرع إلى أبنائه ليعلمهم نتيجتهـا، فيستوعبون بعضها ولا يستوعبون بعضها الآخـر، فيتقدم حالهم عما كان عليه آباؤهم، ويحدث نفس الشىء بـالنسبة لكل جيل، فتتطـور البشرية ويجىء يـومها أفضل من أمسهـا وتخطط لكى يجىء غدهـا أفضل من يومها.

كان الإنسان ينقل حصيلته من الخبرة إلى أبنـائه بوسيلة واحدة هى (الـرواية الشفهيـة)، فكـان مجالا الإفادة والاستفـادة محدودا زمانا ومكـانا، إلى أن توصل الإنسان إلى تسجيل خبراتـه عن طريق الكتـابة، فـاتسع نطاق الإفـادة والاستفادة عبر الـزمان والمكـان.. أصبح من فى قـارة قـادرا على أن يتعلم مما عـرفـه إنسان آخـر فى قـارة أخرى، وأصبح فى امكـان إنسـان فى قـرن أن يتعلم مـاعرفـه إنسان قرن، بل قرون سبقت، فزاد معدل السرعة والتقدم.

وإذا كـان الحيوان الـذى اخترناه مثـالا هو القطط، فإننـا، على الرغم مما نعرفه من تعـدد أنواعها، إلا أن سلوك جميع هذه الأنواع يظل متشـابها إلى حـد التطـابق فى كثير من الأحـوال.ومـا هكـذا الإنسان.. فهـذا إنسان صينـى، وهذا إنسان هنـدى، وهذا عـربى، وهذا فرنسى، وهذا إنجليزى.. وهكذا.

لاتستطيع أن تكتفى بتصور أن يكـون الاختلاف فقط فى الطول أو القصر، فى شكل الشعر، فى لون العينين، فى لون البشرة.. وهكذا.

إنها اختلافات واضحة حقيقية.. لكن، مـاالذى جعل هذا صينيا أو هنديا، أو عربيا أو فرنسيا.. أو إنجليزيا؟

إنه أيضا: التعلم.

فنتيجـة الظـروف المحيطـة بكل فئـة، مـر إنسـان بها بخبرات وحـرص على تعليمهـا لخلفـائه، فحـدث التراكم، إلى أن تميـزت مجموعة خبراتـه، التى تم توارثها بميزات معينة، جعلت منهـا تراثا

اجتماعيا، يختلف عن غيره، فإذا تعلمـه الأبناء، استطاعوا الانـدماج فى المجتمع وصاروا هذه الفئة أو تلك.

●●●

طبعـا لقد سمعت وقـرأت يأيها القـارئ قول الله عـز وجل فى القرآن الكريم: «وعلم آدم الأسماء كلها».

لقد تعـددت تفسيرات المفسرين للمقصود (بـالأسماء) هنا. ولا نـريد أن نـدخلك فى هـذا الخلاف، وإنما يكفى أن ننقل إليك أرجح التفسيرات، وهو أن الله عـز وجل أودع فى الإنســان (الاستعدادات) المختلفـة التى تمكنـــه من أن يتعلم مـا لا حصر لـــه من صنـوف المعـرفة، وأن هـذه هى الميزة التى تميـز بها هذا المخلـوق الفريـد، فأصبح مستحقـا أن يأمـر الله الملائكـة أن تسجـد لـه، ومـا كـان بالإمكان أن يسخر له كل ما على الأرض من نباتات وحيوانات، وما فى جوفها من معادن، وفى أعماق مياههـا من كائنات بحرية، إلا لأن هذا الإنسان قد وهب القـدرة على التعلم، ومعرفة كل مايتصل بكل شىء، حتى يستطيع، بالعقل، أن يسخره لخدمته.

●●●

وليس التعلم مقصورا على المعلـومات والمعارف التى قسمنـاها وصنفناها علوما : تاريخ، جغرافية، فيزياء، كيمياء.. إلخ.

إن هذه المعـارف والمعلومات إنما هــى شريحة من مئات، بل قل آلاف وملايين الأمور التى نتعلمها.

وهـذا هـو الـذى يفـرق بين مـدرسـة (التعليم) التى نعـرفهـا بأسـوارهـا ومعلميهـا وفصـولها ومقـرراتها ومـدرسـة (الحيـاة) باتساعها الرحب واستمراريتها باستمرار الحياة.

خذ مثلا (الجو).

لقد لاحظ الإنسان أن درجات متباينة فى الزمان والمكان، تتراوح

مابين (شديد الحرارة) و(شـديد البرودة)، وأنه لايستطيع أن يعمل وينتج لا فى الحالة الأولى ولا فى الحالة الثانيـة، فكان أن أخذ يبحث ويـدرس ويفحص، إلى أن تعلم القوانين التى تحكم هـذه الظاهـرة، وتعلم كيف يصل إلى وسـائل يتغلب بها على شـدة الحرارة وشـدة البرودة، سواء بالنسبة لملبسه أو بالنسبة لبيئته أو لعمله، فضاعف الإنتاج.

إنه مـوقف تعليمى استغرق قـرونا، تضمّن عنـاصر كثيرة، كان المحور فيها هو (الجو) وكأنـه (فصل دراسى)، تعلمنا فيه معارف ومعلـومات واتجاهـات واختراعات وسلـوكيـات وقيما وميولا، قـد لاتتسع هذه الصفحات لذكرها.

ولنترك هـذا الموقف الضخم الملىء بـالعناصر المختلفـة، ولنختر مثالا آخر بسيطا، إذا سار الإنسان فى طريق فوجد حفرة، أو حجرا مما يعوق حـركة مشيه.. إنه يتعلم على الفـور من (الحفرة) أو من (الحجر) مـاذا يجب عليه أن يفعل حتى تصبح حـركة سيره أسلم وأسرع.ماذا يعنى هذا؟

إنه يعنى أنه فى كل لحظة تمر بنـا، نحن نتعلم.. ومعلمنا هو كل مصدر يضيف إلى خبراتنا ومعلوماتنـا جديدا، والامتحان يتم فورا، لأننا بالفعـل نتلقى نتيجة مانمر به مـن خبرات فورا، إن كان خيرا فخيرا، وإن كان شرا فشرا.

ماذا يعنى هذا؟

هل عرفت إذن، لماذا قالوا فى الأمثـال: أكبر منك بيوم يعرف عنك بسنة؟

إن المقياس هنـا ليس هذا المقياس الزمنى المعـروف.. وإنما هو مقياس (التعلم)، فـالسبق الزمنى فى الميـلاد بيوم، يتيح لـلإنسان فرصـة الحصول على مجموعة خبرات ومعـرفة نتائجهـا مما يجعل صاحبها أكثر وعيا ممن تأخر عنه.

لكن ، لابد هنا من تحفظ.

فمجرد (الوجود) وحده لايضمن التعلم مما نمر به من تجارب وخبرات ومواقف، فكم من أناس مرت بهم خبرات ولم يتعلموا منها، فتكررت أخطاؤهم.

ومن هنا قالوا: إن الفرق بين الإنسان المتقدم والإنسان المتخلف، هو أن الأول هو الذى يتعلم مما يمر به من خبرات فيثبت مايساعده على النجاح ويعززه ويؤيده، ويحذف ويتلاشى ماكان خطأ.. أما الثانى، فيكرر ماأخطأ فيه، فلا يتغير إلى ماهو أحسن، فيتقدم الآخرون، ويظل هو مكانه، محلك سر.. هذا فى أحسن الأحوال، وأحيانا ماتقهقر إلى الوراء.

ولعل بعضنا يتذكر القائد الشهير الإسرائيلى (موسى ديان) أثناء حرب ١٩٦٧، عندما حاول البعض أن يلفت انتباهه إلى أنه يكرر بعض أجزاء سيناريو حرب ١٩٥٦، فكان رده: لسبب بسيط، هو أن العرب لايتعلمون مما سبق أن حدث لهم.

وهكذا.. ليس التعلم هو فقط قراءة الكتب، ولكنه الوعى بنتائج كل مايمر به الإنسان من مواقف وخبرات.

وبقدر ما نحصل من نتائج هذا التعلم، بقدر ماتكون خطواتنا على طريق التقدم.

و.. مدرسة بلدنا

إذا كانت الحياة باتساع الدنيا هى المدرسة الأساسية لكل البشر، وطوال مراحل العمر، فداخل كل وطن مدرسة أخرى، إذا كانت تشترك مع الأولى فى كثير من الأمور، فإنها تختص بأمور أخرى كثيرة تنفرد بها.. إنها مدرسة الوطن الكبير.. مدرسة مصر المحروسة، كما كان المؤرخون يحرصون على تسميتها.

مدرسة بلدنا إذن هى مدرسة (مصر)، وليست مدرسة بلدنا، بمعنى (المدينة) أو (القرية) التى جئت أنت وأنا وهى وهو منها.

●●●

فى مصر — كما فى غيرها من الأوطان - جملة ظروف وأحوال خاصة بموقعها الجغرافى: وقت وكمية الأمطار.. اتجاهات الرياح.. طبيعة الأرض من سهول وصحارى.. أصول أنسية عرقية لها دورها الذى لاينكر فى تشكيل هيئتنا الجسمية ومزاجنا الشخصى.. شكل الشعر.. لون العينين.. الطول.. لون البشرة، فالذين يعيشون فى شمال غرب أوربا - مثلا - يتميزون بلون البشرة الأبيض والشعر الأشقر غالبا والعين الزرقاء وطول الجسم، والمزاج المائل إلى الهدوء.. والأحاسيس التى نصفها بالبرود.

وفى أواسط إفريقيا: البشرة السوداء، والشفاه الغليظة، والشعر المجعد، والمزاج الحاد والانفعالات السريعة.. وهكذا.

وكل تلك الأمور هى (مادة أولية) لتربية كل إنسان، ولكن التقدم الحضارى يضعف تأثير هذه الجوانب شيئا فشيئا، كلما أصبح الإنسان أكثر قدرة على التحكم فى عديد من الظواهر

الطبيعية، ففى قلب الصحراء ــ مثلا ــ فى منطقة الخليج حيث الجفاف والجو الحار واختفاء الخضرة وقسوة الرياح فى بعض الفترات، مما يسبب جفافا مماثلا فى الطباع الشخصية، استطاع الإنسان أن يستنبت الخضرة بتهيئة مناخ ملائم، وإحاطة نفسه بمساكن وأماكن عمل ولهو وتجارة (مكيفة) وذات هندسة جمالية رائعة ترقق الطبع وتبعث الارتياح وتشيع مشاعر السكينة والاستقرار.

وهكذا أحاط الله عز وجل مصر بظروف طبيعية، هى الأخرى جعلت من هذا الذى يسكن جنوب الوادى (صعيديا) ذا سمات جسمية ومزاجية خاصة، وهذا الذى يسكن السواحل، فى الإسكندرية، وفى بورسعيد، مصريا آخر ذا سمات مختلفة إلى حد كبير.

وإذا كانت هذه الظروف (الطبيعية) مما نعتبره مؤثرات فى تكوين كل منا الشخصى، بمعنى أنها (تربينا) تربيات خاصة، فإن هناك ظروفا أخرى محيطة نسميها بالظروف (الثقافية) بالمعنى الواسع، فالثقافة هنا لانعنى بها مايتصل بمجموعة اهتمامات ومعارف خاصة بالأدب والسياسة والفن، كما هو شائع، وإنما نعنى بها كل ماأنتجه المواطن المصرى عبر العصور المختلفة من عادات وتقاليد واتجاهات ومفاهيم وميول وتنظيمات وأدوات وعلوم وكلمات ولهجات وفنون.. إلخ.

إن النبات الذى نقوم بغرسه يتأثر من غير شك بنوع التربة وبالماء الذى يروى به، وبالشمس إذا سطعت أو غربت، وبنوع واتجاه الريح، وبالغذاء الذى يتغذى به.

كذلك المواطن منا فى وطن معين كمصر، يتشرب عاداتها واتجاهات الأمة العامة ولهجاتها وتقاليدها وطرق التفكير فيها،

وأساليب التعامل، والنظرة إلى (الآخر) و(الأغيار) من أبناء البلدان الأخرى، ومن هنا أصبحنا نقول - مثلا - (الشخصية المصرية).

فكما أن لكل منا شخصيته التى تميزه عن غيره من الناس، فلكل وطن كذلك (شخصيته) التى تميزه عن غيره من الأوطان.. ومهما اختلف كل منا عن الآخر، فإن (الغريب) عنا يستطيع، بكل سهولة ، أن يتعرف على الفرد منا بأنه (مصرى)، بناء على السمات العامة المعروفة عن (الشخصية المصرية).

وفى تربيتنا نجد أننا محدودون بطبيعة الحال بالملامح العامة لهذه الشخصية المصرية وسائرين على خطاها، أردنا أو لم نرد.

انظر، مثلا، إلى ماشاع عنا من ميل للعمل الحكومى، وفتور للعمل فى القطاع الخاص، وهذا كان له أثره الرهيب فى ربط التعليم بالوظيفة الحكومية.. إن هذا الاتجاه القومى العام مرتبط بجملة الظروف الجغرافية والتاريخية التى عشناها آلافا من السنين.

فطبيعة مصر الصحراوية، ووجود (النيل) كمصدر وحيد للحياة النباتية والحيوانية والبشرية حتمت، منذ فجر التاريخ، أن تكون هناك حكومة واحدة، لأن مواجهة النيل فى فيضانه واستغلال مياهه، لم تكن ممكنة إلا بجهد جماعى.. ومادام هناك جهد جماعى، فلابد من إدارة، وكان لابد أن تكون هذه الإدارة، واحدة حتى لاتجور فئة على أخرى وتحرمها من المياه.

وهكذا عرفت مصر الوحدة السياسية والحكومة منذ فجر التاريخ!!ولأن هذه الحكومة هى التى أصبحت مصدر (المنع) و(المنح) صارت **مرهوبة** الجانب، **مرغوبة** القرب، واتجه كثير من المصريين إلى أن يكونوا جزءا منها حتى يتمتعوا ببهاء السلطة وعلو الكعب، وشاعت أمثلة بين الناس تقول:

— يا بخت من كان النقيب خاله.

— الميه ما تجريش فى العالى.

— اللى له ضهر ماينضربش على بطنه.

— إن فاتك الميرى، أتمرغ فى ترابه.

وكلها تعكس إجلالا للسلطة وخوفا وطمعا.

وكان طبيعيا أن تحتاج هذه الحكومة، منذ فجر التاريخ، إلى (جهاز بشرى) من مجموعة أفراد يتوزعون على أنحاء (القطر) يجمعون الضرائب ويمسحون الأراضى ويشرفون على زراعة المحاصيل وتوزيع المياه، فكان لابد للتعليم من أن يكون هدفه الأول: إعداد هذا الموظف الحكومى.

وبحكم التقدم وسنة التطور، بدأ المصريون فى التقليل من الاعتماد على الزراعة، ويتجهون إلى مصادر أخرى فى الرزق، فبدأ بريق (الوظيفة الحكومية) ينطفىء، وبدأ كثيرون، لأول مرة منذ آلاف السنين يتجهون إلى العمل الخاص، وتبدأ عملية فك الارتباط بين (الوظيفة) و(التعليم).

لقد خصصنا صفحات أخرى بهدف مساعدة الآباء والأمهات فى تربية أبنائهم، ومعنى ذلك أننا نتعامل مع ظروف وأحوال (ممكنة).. فى (مقدور) الآباء والأمهات أن يحققوها.

لكننا هنا نشير إلى أمور مختلفة.. أمور (مفروضة) من الجغرافيا ومن التاريخ، علينا كلنا. صحيح أن كثيرا منها من صنع الإنسان المصرى، لكنها ليست نتيجة فرد أو مجموعة، إنها حصيلة عمل كل المصريين، وعبر آلاف السنين، ومن ثم يبرز السؤال:

وماذا فى يدنا إذن تجاه هذه المؤثرات المربية؟

إننا هنا نردد ذلك الدعاء الشهير: (ربنا إننا لانسألك ردالقضاء، ولكننا نسألك اللطف فيه).

فمهما كانت هذه المؤثرات (محيطة) و(مفروضة) فباستطاعة

كل منـا أن يخفف من آثارهـا إن كانت سلبيـة، وأن يزيـد منها إن كانت إيجابيـة، ذلك أن السمات العامـة لتراثنا الثقـافى وللشخصية المصريـة ليست كلها إيجابيـة مما يمكن أن نعتـز بها كلها، فهنـاك ماهو سلبى ونسعى للتخلص منه، مثل هذه الخاصية المعروفة من اعتماد مصر بالدرجة الأولى على الـزراعة، فلقد ارتبطت بهذا سمات شخصية سلبية مثل (السلبية) و(التواكلية) ذلك لأن طول الاعتماد فى العمل على الإنتاج الـزراعى من شأنه أن يسـاعد على ذلك، حيث أن العمل الزراعى كان يعتمـد، طوال عشرات القرون الماضية، وقبل التقدم العلمى الذى بدأت الأرض الزراعية المصرية تشهده فقط منذ عشرات قليلة من السنين، كـان يعنى الاعتماد على ظروف ليست فى مقدور الإنسان، مثل: توافر الميـاه، والأحوال المناخية، فيظل الفلاح تحت رحمة هذه الظروف، لاحيلة له فى الأمر.

والوظيفـة الحكومية التى أشرنـا إليها كـان من شأنها أن تدعم هذا وذاك، فالموظف لابـد أن يسير وفق (تعليمات) و(لوائح)، ليس له أن يبتكر ويخترع، وراتبه يأتيـه فى أول الشهر، فلا يقاس بكمية الإنتاج ونوعه، فتقل فرص المبادأة وحسن التصرف وسرعته.

والوظيفـة الحكومية سلسلـة هرميـة، هذا يتبع ذاك، وذاك يتبع آخـر.. وهكـذا، فيسلـك سلـوك (التـوابع)، مع مــايـرتبط بها من محاولات هيمنـة وتحكم. ولأنـه فى الـوقـت ذاتـه يتبعـه آخـرون، يحرص ـ أحيانا ـــ على أن (يفك عقدته) فيمارس مع من هم دونه، مـايمارسه معـه من هم أعلى منـه، فتختفى فـرص التعامل (معـا) وبندية ومساواة!

إننـا هنـا نسـوق أمثلة محــدودة تقل عن عـدد أصــابع اليـد الواحدة، بينما هنـاك فى ثقافتنا الاجتماعية آلاف أخـرى من الأمثلة والأحوال.

خـذ على سبيل المثال كـذلك هذا الاتجاه الـواضـح بين المصريين نحو أمرين على طرف نقيض: الحزن الشديد، والميل إلى الفكاهة.

فـالموت مكانـه مرمـوق فى التراث الفرعـونى.. إن أحد عجـائب الـدنيـا السبع التى يجىء آلاف من السيـاح من كل أنحاء الـدنيـا لزيارتها وهى الأهرام هى فى حقيقتها: مقبرة!!

إن عادة (الأربعين) التى تحتم أن يظل الحزن مخيما عنـد وفاة أحـد أفـراد الأسرة، عـادة فرعـونيـة، وظن كثيرون ــ خطأ ــ أنها مرتبطة بالدين.

والذى يقرأ التـاريخ المصرى، فى كثير من الفترات، يلمس صورا مؤسفة من ألوان القهر والاستغلال والعذاب عاشها المصريون.

من هنا سكن الحزن فى قلوب كثيرين.

ولأن عجلة الحياة لابد أن تدور، فـلابد من العمل والإنتاج، كان يستحيل الاستكـانة إلى مناخ (الغـم) و(الهم) و(الحزن) وإلا مات الإنسان ببطء شديد وشلت الحياة.

إنها حكمة الله فى خلقه.

فكما نقول: اشتدى يا أزمة تنفرجى.

وكما نقول: كلما اشتد الظلام، اقترب الفجر.

حل المصرى الموقف الحزين المظلم القـاهر، بـالنكتـة والفكاهـة والميل الـواضـح إلى الضحك، حتى لتعـد النكتـة المصريـة من أحلى النكات فى العالم.. ولو قارنت بين الكـاريكاتير الذى تراه فى الصحف والمجلات المصرية، بغيره ممـا نراه فى صحف ومجلات دول أخرى، لظهر الفرق الكبير، فالكاريكـاتير المصرى لابد أن يجعـل الإنسـان ــ غـالبـا ــ يقهقـه، وبصـوت عـال، وأضعف الإيمان: يبتسم.. والكاريكـاتير، غير المصرى، أقصى مايستطيع أن يفعلـه، أن يجعل الإنسان يبتسم ابتسامة فاترة باردة!

وعنـدمـا تسـافـر خـارج مصر، فـإن أول سـؤال يسألك إيـاه الأصدقاء فى الخارج: إيه آخر نكتة فى مصر؟

إن هذا المناخ الثقافى يحتاج من كل منا إلى وعى وحذر.

فمناخ الحزن والكآبة يخنق الآثار الإيجابية للتربية.. يبث اليأس ويشيع الإحبـاط، وينشر الفتور.. ويقعـد الهمـة ويدعـو إلى الكسل ويقتل الطموح والأمل.

أما مناخ الفرح والسرور والسعادة، فعلى العكس من ذلك تماما.

قـارن حـالتك النفسيـة وأنت محاط بمظـاهـر سـواد ودمـوع وصراخ، وحـالتك النفسيـة وأنت محاط بـالابتسـامـات والألـوان البهيجة والزهور.

ومن هنا فلكى نحسن التربية، لابـد من إشاعة البهجة والسرور بين من نـربيهم.. حتى لوكـانت هناك ظـروف مؤسفة تحيـط بنا.. مفروض أن نجنب أبناءنا أن يعيشوا مشاعرها ومظاهرها.

ربوهم .. قبل أن يولدوا !!

ليس فى هذا العنوان لغز كما قد يتصور القارىء لأول وهلة.

فلكى نربى — مثلا - لابد وأن يكون هناك (موضوع) هو هنا (الأبناء)، وقبل الميلاد، لايكون هناك موضوع، فمن نربيه اذن؟!

لكن الذى نقصده من هذا هو أن نبذل أقصى مانستطيع من جهد لتهيئة الظروف السوية والشروط السليمة التى تضمن إلى حد كبير أن يجىء تكوين الأبناء سويا سليما.

إن الطفل عندما يبدأ الحياة، فبناء على (تكوين أولى) يشكل (أصولا) أولية تقوم بدور لايستهان به فى تنشئة الأبناء.

والطفل اذ يجىء إلى هذه الدنيا ابنا (لفلان) و(فلانة)، فمعنى ذلك أن هذين الوالدين سيحددان (البنية الأساسية) التى سيقوم عليها هذا البناء البشرى الجديد.

ولقد فطنت بعض المجتمعات القديمة إلى أن اختياراتنا كأزواج وزوجات لبعضنا البعض، تشكل اللبنات الأولى لتشكيل أبنائنا، فحرص مجتمع (أسبرطة) فى بلاد اليونان القديم على ألا يترك اختيار الزوجة إلى الزوج، وانما لابد من تدخل الدولة!! حتى تضمن أن يتم الزواج بين والدين على جانب كبير من الصحة البدنية.

وأفلاطون، الفيلسوف اليونانى الشهير، كتب كتابه الشهير المسمى بـ (الجمهورية) معبرا عن اعجابه بالتفكير الذى ساد اسبرطة، فرسم صورة لمجتمع مثالى تخيله، وكان من ضمن شروط قيام هذا المجتمع المثالى، أن تشرف الدولة نفسها على عملية اختيار الزوج للزوجة، ويستند فى ذلك إلى اننا نراعى هذا فى عملية التلاقح

بين الحيوانات والنباتات، حتى نضمن نتائج جيدة، أفليس الانسان أولى بذلك؟

ماذنب أطفال يجيئون نتيجة زوج أو زوجة بها أو به مرض من تلك الأمراض الوراثية؟

مـاذنب أطفال يجيئـون من أب أو أم بـه أو بها بعض الخلل فى التكوين العقلى؟

من هنا نستطيع أن نفهم وجـاهة الـدعوة إلى قيام مكـاتب تقوم بـالفحص الطبى والنفسى لكل من الـزوج والزوجـة قبل الـزواج، واعتبار نتيجة الفحص مسوغا أساسيا من مسوغات عقد القران!

صحيح أن تكـوين الأسرة ينبنى بـالـدرجـة الأولى على (الحب) و(التفـاهم) و(التكـافـؤ)، إلا أن التكـافـؤ لايعنـى فقط التقـارب الاجتماعى والاقتصادى والثقـاف، وانما لابد كذلك أن يتـوافر شرط الصحة البدنية والنفسية لكل من الزوجة والزوج.

وتعالوا بنا نسمع لرأى العلم فى هذه القضية الهامة:

وقبل أن نعـرض لهذا الـرأى، نـود أن نـؤكـد هنـا اننـا لانعنى بتقـدير المحـددات الـوراثية وظـروف الحمل أن نلغى دور الجهـد الثقـافى البشرى فى تكـوين الشخصية، ولانعنـى بذلك أبـدا فـرض صورة من صور (الحتمية البيولوجية) .

كلا. إن الذى نريد تأكيده هنـا هو أن هذه المحددات تمثل ـ كما قلنا ـ (المادة الأوليـة) و(البنية الأساسية) التى سـوف تتفاعل مع مـاسيواجهـه الأبناء من خبرات لتتكـون من هـذه وتلك فى النهايـة شخصياتهم.

انه على الـرغم من كثـرة عدد أفـراد الانسان على مـدى الأجيال المتعاقبة، منذ بدء الخليقـة، إلى الآن، وعلى الرغم من وجود التشابه بين بعض الأفراد إلى الحد الذى أدى إلى وجـود الاعتقاد، فى مختلف

الثقافات والمجتمعات، بأن كل شخص له شبه أو أكثر يصعب التمييز بينهما، على الرغم من هذا، فإن كل شخص له خصائصه المتفردة، وله مظهره المتميز الذى يختلف فيه عن كل ماعداه.

وتعتبر الوراثة والبيئة مسئولتين عن الفروق الفردية بين الأشخاص. ونظرا لأن تأثير هذين العاملين متشابك ومتداخل، فإنه لايمكن القول، مع أدنى درجة من اليقين: أين ومتى يبدأ تأثير أحد هذين العاملين، وأين ومتى ينتهى تأثير العامل الآخر؟ فحجم البدن، أو بنية الجسم، مثلا، محددة أساسا بالوراثة الأسرية والسلالية، لكنها تتأثر أيضا بالظروف البيئية وخاصة مايتصل بالتغذية والأمراض، إلى جانب تأثيرات الهرمونات الجسمية التى تفرزها الغدد المختلفة وخاصة الغدة النخامية التى تقع تحت الجمجمة من الخلف، والتى يعتبر النقص فيما تفرزه من هرمونات خلال الطفولة والمراهقة، من معوقات النمو الجسمى بصفة عامة.

إن الحيوان المنوى والبويضة، يحتوى كل منهما على نصف العدد من الكروموزمات الموجودة فى الخلايا الأخرى العادية، وعندما يدخل رأس الحيوان المنوى الغشاء الخلوى المحيط بالبويضة، فإن رأسه تتحلل وتتجه كروموزماتها ، نحو كروموزومات البويضة، وفى نفس الوقت تتمزق نواة البويضة لتطلق كروموزوماتها. وتمثل الكروموزمات القادمة من الأب الصفات الوراثية التى سيتلقاها الطفل عن أبيه، كما تمثل الكروموزومات القادمة من الأم الصفات الوراثية التى سيتلقاها الطفل من أمه. ولذلك فإن كل الحدود القصوى التى يمكن أن يصل إليها الطفل تتحدد عن طريق الاتصال القائم بين هذه الكروموزومات، بما تحمله من صفات وراثية تحملها الجينات الموزعة على هذه الكروموزومات.

ويحمل كل كروموزوم عددا كبيرا من الجينات، ويتكون كل (جين) gene من أنزيم كيميائى يسمى حامض ديوكسيريبو نيوكليك Deoyribonuclic acid واختصاره DNA و DNA هو جزىء الوراثة، وهناك حوالى ١٠٠,٠٠٠ جزىء DNA (جين) لكل خلية بمتوسط حوالى ألفى جين لكل كروموزوم.

ومن المعروف أن الجين هو وحدة الوراثة، وأنه يتحكم فى تكوين البروتين أو المادة التى تتكون منها الخلية الحية، وهى المسئولة عن كل الخصائص الوراثية فى الانسان. وعندما نتصور أن هناك ١٠٠,٠٠٠ جين لكل خلية، وأن كل جين من هذه الجينات يتكون من سلسلة مزدوجة من العديد من النيوكلينيدات، فإن عدد العلاقات الممكنة يمكن أن يصل إلى عدد مايكون من كواكب سيارة، وهذا هو السبب فى تنوع مذهل نلاحظه فى الجنس البشرى.

وجدير بالذكر أنه على الرغم من عدم وجود اتصال عصبى مباشر بين الجهاز العصبى عند الأم، والجهاز العصبى عند الجنين، وعلى الرغم من عدم وجود قناة لتوصيل الانفعالات والمشاعر والأفكار بين الأم والجنين، إلا أن الانفعالات التى تعيشها الأم تؤثر على الوظائف الفسيولوجية للجنين، وتفسير ذلك أن الانفعالات التى تعيشها الأم تؤثر على وظائفها الفسيولوجية مما ينتج عنه زيادة فى افراز بعض الهرمونات مثل الادرينالين وغيره، فترتفع نسبة هذه المواد الكيميائية فى دم الأم، مما يسمح بنفاذ بعضها إلى دم الجنين فى المشيمة، فتؤثر هذه الهرمونات على الوظائف الفسيولوجية والاستجابات العصبية للجنين .

ويميل البعض إلى اعتبار الرحم بيئة ثابتة، متشابهة بالنسبة لكل الأجنة، على اعتبار أن الظروف التى تحيط بالجنين محددة وغير معقدة، بالقياس إلى البيئة التى تواجهه بعد ولادته، ولكن

الواقع أن هنـاك اختلافات واضحة بين الظـروف التى تتعرض لها الأجنة فى أرحام أمهـاتهم، فالحالة الجسمية والانفعاليـة للأم أثناء الحمل تـؤثـر بشكل مبـاشر على الظـروف التى تحيط بـالجنين فى الرحم، كما قلنا، والتى تمثل بيئته التى يعيش فيها ويتأثر بما فيها من مـؤثـرات، فهذه الظـروف تـؤثـر فى مسار نمـوه، وفى صحتـه الجسمية والنفسية.

وتشير الـدراسـات إلى أن الأسـابيع الثمانيـة الأولى من الحمل، تعتبر فترة حـرجـة، من حيث سـلامـة وتكـامل الجهـاز الهضمى للجنين، بحيث أن المؤثرات الحركيـة أوالكيميائيـة (من مثل سقوط الأم على الدرج، أو تناولها لجرعات من بعض الأدوية) قد يؤدى إلى ضرر بالغ على الجهاز العصبى للجنين. وتذكر بعض الدراسات أن الأم إذا مـا أصيبت فى هـذه الفترة بـالحصبـة الألمانيـة لكـان من المحتمل أن ينشأ الطفل مصابا بالضعف العقلى .

وممـا هـو معـروف أن الحمل ينطـوى على كثير من الجهـد الجسدى، فـالتغيرات العضوية وتكييف عمليـة الاستقلاب تستهلك الكثير من الطاقـة الجسدية للمـرأة الحامل، ويترافق ذلك مع تكيف نفسى، فالمرأة تحلم بدورها الجديد، وتحضر نفسها لهذا الدور، إذ تمتزج لديها مشاعر القلق والسعادة، وكثيرا مايلاحظ تغيرات قوية فى مزاج الحامل، فحينـا تجدها سعيدة حـالمة متفائلة، وحينـا آخر تعانى من الانقبـاض والقلق. وتظهر الحامل رغبـة قوية بـالتعرف على مايتعلق بالحمل والولادة وتلجأ غالبـا إلى الصديقات والمقربات من صاحبات التجربة لتطرح الأسئلة التى تهمها.

وفى معظم المجتمعات الصناعية مؤسسات متخصصة تعمل على تصنيف المعلومـات وتدريب النسـاء الحوامل وتحضيرهن للولادة، حيث إنه من الأهمية بمكان بـالنسبة للشابة الحامل أن تلتقى بمن

هن فى نفس الــوضع، أى بــالحوامل وذوات الخبرة ممن يستطعن زرع الطمأنينــة والثقة بالنفـس، وخاصــة اللواتى تجاوزن مــرحلة الــولادة، ففى ذلك دليل محسوس يمكن أن يعـزز الشعور بــالأمن ويخفف من حدة القلق والمخاوف.

وبالنظر لأهمية مرحلــة الحمل بالنسبة لصحة الحامل ولصحة الجنين وتطوره بشكل مناسب، فلابد من المراقبة الطبية المنتظمة فى مــرحلة الحمل، ففــى بلد كفـرنســا مثلا، يطــالب التشريع بأربعــة فحوص طبية على الأقل أثنــاء الحمل، ولايمكن للحامل الاستفادةمن المساعدات الاجتماعية والتعويضات النقـدية إلا إذا التزمت بالمراقبة الطبية.

وتحتــاج المرأة الحامل إلى العنــاية الجســديــة والــراحة والنــوم وتجنب الاجهــاد، وتنصح بالمشى وتجنب التــدخين وعدم الجلــوس فى الأماكن سيئة التهوية. وكذلك تحتاج الحامل إلى التغذية المناسبة والمتوازنــة، ويجب أن تتجنب المواد المخـدرة وعدم أخـذ الأدوية إلا باستشارة طبيب.

ويجب الاهتمام بنــوعيــة التغذيــة وكميتهــا، وذلك بأن يتضمن النظام الغـذائى للحامــل العناصر الضرورية كــالحليب ومشتقــاته واللحــوم والسمك والبيض والبقــول والخضر والفاكهــة، مع عــدم الاكثار من النشويــات والملح، ومراقبة الوزن، بحيث لايــزيد بشكل لافت للنظر.

إن الغـذاء السليم والمتــوازن يمكن الحامــل من المحــافظــة على صحتها ومن توفير عوامل النمو الصحيح للجنين أثناء الحمل.

وهناك عديد من المظاهــر التى تشير إلى عدد من الأبناء يحملون أوزارا تــوجه حيــاتهم طــوال عمرهم، لم يكن لهم ذنب فيهــا، وانما هم ورثــوها عن آبــائهم وأمهاتهم، من ذلك مــايشير إليه عــدد من

العلماء من تكـرار ظهور بعض الأمـراض فى عائلات معينـة بنسبة أكبر من تكـرارهـا فى غيرهـا من العائلات، ويـزداد تكـرار ظهـور الأمراض التى تنتقل بالوراثة، بصفـة خاصة فى العائلات التى يكثر فيها التـزاوج بين الأقارب مـن أفرادها. ومـن أمثلة هـذه الأمراض، مرض سيولة الـدم، ومرض عمى الألوان، والضعف العقلى المنغولى، وكذلك بعض أنواع السرطان.

إن هذا وغيره كثير ممـا نجده فى الكتـابات الطبيـة المتخصصة، إنما يصرخ بنـا أن نكون على درجـة من الأمـانة ومن الـوعى تجاه أجيالنـا الجديدة، بحيث لاننتظـر أن يولد لنـا أبناء لنبـدأ تربيتهم، وانما نحـــرص على حسن اعـداد المسرح، وارســـاء أسس البنيـة الأساسيـة وفقا لقواعد الصحـة والسلامة الجسميـة والنفسية على الســواء، ولايتأتى ذلك إلا بأن نقف مع أنفسنـا وقفة صـدق ذاتى فنفحص أنفسنـا فحصـا جيـدا شـامـــلا من النـواحى الجسميـة والنفسيـة قبـل الاقـدام على الـزواج، فضــــلا عن الالتـــزام التـام بالتوجيهات الطبية الخاصـة بكل مايمكن أن يؤثر على الجنين أثناء فترة الحمل.

ومن هنا نستطيع أن نفهم الحاح الـرسول صلى الله عليه وسلم علينا بـالتدقيق فى عمليـة الاختيار ووضع الشروط التى تكفل الحد الأدنى منها وضع أقـدامنا على طريق البناء الســوى للمناخ الأسرى الكفيل بتنشئة أبنـاء أسويـاء. وهكذا نجد الـرسول الكـريم يقول: (تنكح المرأة لأربع: لمالها ولحسبهـا، ولجمالها ولدينهـا)، ثم يركـز على الجانب الدينى فيقول: (فعليك بذات الـدين تربت يداك). وقال كذلك: (إذا أتـاكم من ترضـون دينه وأمانتـه، فزوجـوه، إلا تفعلوا، تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير).

وليس معنى التركيـــز على ذوات الـدين وذوى الـديـن فى هـذه

النصـوص وأمثـالها التبغيض فى جـانب الجمال والمال ونحـوهما، وانما هو التأصيل لـلاختيار بحيث تكـون النظرة أولا وبـالذات إلى التناسق مع استمـرار الحياة الـزوجية واستقـرارها، ولا يكفل ذلك إلا مع ارتفـاع درجـة الايمان بـالله وخشيته وتقـواه ، فهـذه قيمـة مـركزيـة تجمع تحت مظلتها العـديـد من صور السلـوك البشرى السـوى، إذا كـان هـذا الايمان مبنيـا على وعى وتفكير وصـدق وخلوص نية.

الخبرة الأولى

على الرغم من أن الإنسان، فى اللحظات الأولى للميلاد ، يكون فى حالة عجز شبه كامل، وخاصةمن حيث الوعى والتفكير، إلا أننا نريد أن نؤكد فى الصفحات التالية أن الأحداث التى تمر به منذ لحظة الميلاد لها دورها الخطير فى تشكيل الكثير من تصرفاته الحاكمة فى التكوين الشخصى فيما بعد.

فهناك اتجاهات سلبية قد تكون لدى الوالدين يكون لها دورها فى نوع ودرجة أحاسيسهما فى تعاملهما مع الطفل مما يكون له أثره عليه طوال حياته، مهما حاول الوالدان القضاء عليها بتصرفات مغايرة من هذه الاتجاهات السلبية:

١ — الرغبة القوية فى الحصول على طفل من جنس معين، فإذا كان الطفل من جنس غير الذى يرغبه الوالدان، فإن خيبة أملهما قد تؤدى إلى اتجاهات النبذ.

٢ —الرغبة القوية فى نوع معين من الأطفال، وقليل من الأطفال من يأتى متفقا مع حلم الآباء فى الشكل والقدرات الشخصية، وكلما تباعدت الصورة أكثر التى تخيلها الآباء لهذا الطفل، نمت اتجاهات غير مرغوبة نحو الطفل.

٣ — عدم رغبة الوالدين فى الحصول على أطفال، فمهما كانت أسباب ذلك، فإن الحمل غير المرغوب كثيرا مايكون مصدرا للرفض والغضب الذى يؤثر على مدى عنايتهما بالطفل.. ويؤدى إلى اتجاهات النبذ.

٤ — عدم رغبة الوالدين فى الحصول على طفل فى هذا الوقت بالذات، فإذا تم حمل طفل فى وقت يرى الولدان أنه وقت غير

ملائم، أو غير مريح، فكثيرا مايلـوم الزوج زوجته لإهمالها، وتشعر هى بالذنب على عدم منعها هذا الحمل غير المرغوب.

والاتجاهات الـوالديـة غير المرغوبـة تجاه الطفل تؤثـر على نوع التكيف الشخصى والاجتماعى الـذى يحدث للطفل كلما كبر، فكثير من حـالات عدم الاستقرار وسـوء التكيف تنشأ من مشاعـر الطفل بأن والديه ينبـذانه.. لأنه لايتطابق مع توقعـاتهما، أو لأنه كان غير مطلوب وجـوده فى هذه الحيـاة، فإذا رأى أحـد أشقائه أكثـر تقبلا منه، فإن ذلك يضخم من مشاعر النبذ وعدم التوافق الشخصى.

وفى دراسة عن توافق بعد الميلاد لأطفال كانت أمهاتهم أقل قلقا خـلال الحمل، بينت أن قلق الأم لم يـؤثـر فقط على ميـلاد الطفل، ولكن على علاقة الطفل بالوالـدين أيضا، وأن قلق الأم أيضا قد أثر على التوافق العقلى والانفعـالى، فالأطفال الذين كانـت أمهاتهم أكثر قلقا كانت معاملات ذكائهم أقل.

ويتزايد اليوم عـدد الولادات التى تحدث فى دور التوليد بإشراف طبى، ولقـد درجت العادة على فصـل الصغير عن الأم مباشرة بعـد الولادة لأسبـاب العناية الصحيـة، إلا أن النتائج الحديثة لـلأبحاث تخلص إلى القـول بوجـوب وضع الوليـد على تماس حسى مع الأم بعـد الـولادة مبـاشرة، وذلك لأهميـة هذه اللحظـات فى العـلاقـات اللاحقـة بين الطفل والأم، فالتماس الجسـدى بين الاثنين يمكن أن يؤثـر فى الاتصال المتبادل بين الطفل الأم، وهـذا ماتوضحـه دراسة تمت المقـارنة فيهـا بين ثـلاث مجمـوعات من الصغـار، تعـرضت المجموعة الأولى إلى تماس جسدى مطـول، وذلك بوضع المولود على بطن أمـه بعد الـولادة مبـاشرة لمدة ثـلاثين دقيقة، بينما تعـرضت المجمـوعـة الثـانيـة إلى تماس لمدة خمس دقـائق، ولم تتعـرض المجموعـة الثالثـة للتماس مع الأم وذلك لأسباب طبيـة.. وقد بينت

هذه الدراسة أن التماس المطول يسهل على الأم التعرف على رائحة الطفل.. ويكون الطفل فى الأيام التالية أكثر حساسية لرائحة الأم بالمقارنة مع روائح محايدة أو مع رائحة أم أخرى..

لقد أوضت الدراسات المتعلقة بتأثر الرائحة فى علاقة الأم بطفلها بأن الرائحة تلعب دورا هاما فى تطور هذه العلاقة خاصة فى المرحلة الأولى بعد الولادة (فايز قنطار: الأمومة، عالم المعرفة (١٦٦)، الكويت، أكتوبر ١٩٩٢ ص ٧٢).

ولقد بينت الدراسات التى أجريت على الأنواع الأخرى من الكائنات الحية أنه توجد مرحلة حساسة بعد الولادة تؤثر فى نمو العلاقة بين الأم والصغير، وأن منع الاتصال الحسى أو ندرته يمكن أن يؤدى إلى تعديل فى سلوك الأم.

أما بالنسبة للنوع البشرى، فهناك من يرى أن الأربع والعشرين ساعة التى تلى الولادة، يمكن أن تلعب دورا هاما فى تحديد سلوك الأمومة، ويمكن اعتبارها مرحلة حساسة فى نمو العلاقة بين الأم والطفل، فالاستجابة الطبيعية للأم تجاه المولود الحديث تتأثر تأثرا هاما فى هذه المرحلة، وكذلك بالنسبة للاختلافات الكمية والكيفية فى سلوك الأمومة فى مرحلة لاحقة، فهى تعتمد إلى حد كبير على طبيعة الاتصال فى الساعات الأربع والعشرين الأولى بعد الولادة.. وفى رأى هؤلاء يمكن أن يؤدى الاتصال بين الأم وطفلها إلى اضطراب العلاقة بينهما فيما بعد (الأمومة، ص ٧٤).

وتتميز لحظة الميلاد بحدوث تغيرين أساسيين بالنسبة للطفل، فهو فى هذه اللحظة معرض لحالات من عدم الاتزان أو الحرمان أو الانزعاج، والتى غالبا مايتكيف لها على وجه السرعة.. هذا من جهة، ومن جهة أخرى فهو يواجه أيضا مختلف الأحداث والتجارب التى تشكل إدراكاته وانفعالاته.

إن حـديث الولادة يمارس حـالات الجوع والإحساس بـالحرارة والبرودة والألم التى كان محميا منها خـلال فترات ماقبل الولادة، وهـذه الممارسة مهمـة نفسيـة لأنها تـدفع الطفل لعمل شىء لكى يخفف من إحسـاسه بـالضيق.. إنـه يصرخ ويبكى عنـدما يكـون جوعـان، أو يحدث صوتا عندمـا يثار، ويضرب بأطرافـه عند الألم، وهذه كلهـا تفاعـلات فطرية لـلإحساسـات التى يشعر بها، وهى بالتالى تقود إلى رد فعل فى البيئة المحيطة بالطفل.

ففى العـادة يأتى شخص آخـر ليرعى الطفل عنـدمـا يبكى أو يضرب بأطـرافـه، وبهذا التصرف يـدخل نمـو الطفل تحت تحكم جزئى للبيئـة الاجتماعية المحيطـة به، فمن اللحظـة التى يبـدأ فيها شخص ما فى خدمة الطفـل، تتقوى بعض التصرفات الخاصة بينما تضعف أخـرى، ويبـدأ الطفل ارتباطـه بإنسـان معين، ويـدخل فى النظام الذى فيـه ينظر إلى الناس كأشياء أساسيـة يلجأ إليها الفرد للمساعدة ومنها يتعلم الطفل القيم والعادات.

ويجب أن توجه كل الجهود إلى أهمية تغذيـة الوليد من ثدى أمه خاصـة خلال الثلاثـة الشهور الأولى من عمره، ومسئـولية الأم فى تغذية المولـود من الثدى، ماهى إلا استمرارا لمسئوليتهـا فى تغذيته عن طريق الحبل السرى.

ولبن الأم يعتبر أهم غذاء للـوليد خلال عامـه الأول، ويستمر ذا قيمة عالية خلال عامه الثانى. ومن الثابت أن لبن الأم:

— غنى جـدا بـالبروتينات ويحمى جسم الطفل مـن الإصابـة بالأمراض كالحصبة والسعال الديكى والإسهال.

وفى فترة إفراز لبن المسمار الذى يستمر من ثلاثة إلى ستة أيام، ليس هنـاك حـاجـة لإعطـاء الطفل أى أغـذيـة أو سـوائل أخـرى، ويستمر ذلك أيضا خلال الأسابيع الأولى من عمر الطفل.

— لبن الأم عبـارة عن خليط مـن الـدهـون والسكـريـات

والبروتينات، لذا فهو يزود الجسم بالعناصر الغذائية اللازمة لنمو الرضيع، مع وجود عنصر الحديد الذى يكفى الرضيع لمدة ستة أشهر فقط بعد الولادة، وبتتبع وزن الطفل مع الرضاعة الطبيعية نجد النمو واضح المعالم.

— لبن الأم يصل إلى فم الطفل فى درجة حرارة مناسبة، معقما.

— لبن الأم يقوى الروابط بين الأم ووليدها، إذ يشعر الوليد بدفء حضن أمه فيزيد إحساسه بالأمن والطمأنينة، والرضاعة الطبيعية تفيد الأم أيضا، إذ أنها:

● تقلل من إصابتها بسرطان الثدى نظرا لقيام الثدى بوظيفته، فقد دلت الاحصاءات على أن نسبة الإصابة بسرطان الثدى بين السيدات اللاتى يرضعن أطفالهن من ثديهن لمدة أربعة إلى ستة أشهر، خمس النسبة التى تصاب بها الأمهات اللاتى يتقاعسن عن الرضاعة الطبيعية.. كما وجد أن أقل نسبة للإصابة بسرطان الثدى توجد بين المرضعات.

● تساعد على انقباض الرحم إلى حجمه الطبيعى، كما تقلل احتمالات حدوث النزيف الذى يصاحب فترة النفاس وما بعدها، وفضلا عن ذلك فإن التبويض يكون أقل مع الرضاعة الطبيعية من الثدى باعتبارها وسيلة للمباعدة بين حمل وآخر.

ولقد أفادت الأبحاث التى أجرتها هيئة الصحة العالمية على الألبان والأغذية الصناعية والتى نشر الكثير عنها بمناسبة العام الدولى للطفل عام ١٩٧٩، أن الألبان الصناعية والأطعمة المصنعة أو المحضرة كيماويا لها تأثيرات مدمرة على صحة الطفل وعلى جهازه الهضمى، كما أن الرضاعة الصناعية تعرض الطفل للإصابة بالنزلات المعوية بسبب أخطار التلوث.. وتعتبر النزلات المعوية هى السبب الرئيسى فى ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال الرضع.

إن السؤال عما إذا كـان الوجود المستمـر للأم لاغنى عنـه لنمو طفلها نمـوا سليما هو سؤال ملح فى هـذه الأيام، حيث يتكاثـر عدد الأمهات اللاتى يعملن فى عالمنا العربى.

ولقد أشـارت الأبحاث العلمية حـول هذه القضيـة إلى أن أطفال الأمهات الـلائى يعملن، يعانـون فقط إذا لم يكن هنـاك استقرار فى الأسرة، أو فى الترتيبـات التى تعمل من أجل رعـاية الطفل، فأطفـال الأسر المفككة مثـلا، يكون احتمال انحرافهم أكبر مما إذا كـانوا من أسر مستقرة متماسكة تخرج فيهـا الأم أيضا إلى العمل.. كذلك فإن الرعـاية غير المستقرة (أى التى لايكون فيهـا بديل ثابت لـلأم) قد تؤدى بـالطفل إلى أن يصبح اتكاليـا يعانى من قلق الانفصـال عن الأم، بينما لاتـؤدى الـرعـاية الثـابتـة المستقـرة بـالطفل إلى نفس النتيجة.

ومن نـاحيـة أخرى، فقـد أكـدت دراسـات أخرى أن الأطفـال، وخاصة الأولاد الـذين تتولى أمهاتهم رعايتهم طـول الوقت يميلون أكثـر من غيرهم إلى أن يتمثلـوا المعـايير السلـوكيـة التى يقـرهـا الـراشـدون، خـاصـة فيما يتعلق بـالضبط الـذاتى والتحصيل الدراسى، أمـا الأطفال الـذين توفـر لهم الرعـاية عن طـريق بدائل للأم، فلا يـأبهون برأى الكبار فيهم بقدر مايـأبهون بفكرة الأنداد عنهم (د. محمد عماد الدين اسماعيل: الأطفـال مرآة المجتمع، عالم المعرفة، مارس ١٩٨٦، الكويت، ص ١٩٦).

إن البـدايـات ليست مجرد خطـوات أولى، بل إنها تحدد المسـار وترسم التـوجه، ومن هنـا كان حـرصنا على التأكيـد على أن تكون هذه البدايات سـليمة وصحيحة وسـوية، حيث إن ذلك سييسر لنا ـ فيما بعـد ـ أن يجىء مـانشيّده من أبنيـة بشريـة قـويـا إزاء الـزلازل، صلبا تجاه العـواصف الرعـدية ، شـامخا أمام الأحـداث الطاحنة.

التربية بالحب

لم تكن صاحبتنا تتجاوز السادسة عشرة من عمرها، عندما حتمت عليها الظروف، فى أول الاربعينات أن تتزوج. ولم تكن هى الزوجة الأولى. ليس هذا فقط، بل وجدت نفسها أمام ضرورة معايشة أبناء الزوجة الأولى الثلاثة، كانت أعمارهم قريبة من عمرها.

كان المنزل الذى حتمت الظروف أن تعيش فيه (بيت عيلة)، أى ذلك الذى يصبح مركزا لمعظم أفراد العائلة (الممتدة)، كأخوة الزوج، على سبيل المثال.

وكالعادة، لم يكن الشعور المبدئى تجاهها من الجميع هو الارتياح، وخاصة من أبناء الزوج وشقيقته، إذ كانت العيون ترقبها وتتعامل معها باعتبارها (دخيلة).

لكن الله ألهم صاحبتنا، على الرغم من صغر سنها هذا، بأسلوب فى التعامل يحسدها عليه كبار أساتذة التربية وعلم النفس الذين لو اجتمعوا على أن يعلموا أو يدربوا آخرين على مثل هذا السلوك، ما أظن أن النجاح كان سيحالفهم، بنفس الدرجة التى حققتها هذه السيدة، من غير دروس ولاكتب فى التربية وعلم النفس، حيث كان حظها من التعليم مجرد معرفة القراءة والكتابة.

لقد واجهت الجميع بهذا السلاح الانسانى العجيب الشبيه بالطاقة الذرية عندما توجه لأغراض السلام... ألا وهو: الحب!!

كانت تتفنن، وبحماس غريب، وبغير تكلف وصنعة، فى خدمة أبناء زوجها والحدب عليهم ورعاية مصالحهم، بل والتوسط بينهم وبين أبيهم إذا غضب منهم لأمر من الامور.

وفى البداية، ووجهت بشك وعدم ثقة...

وشيئـا فشيئـا، شعـر الأولاد أنها تفعـل مـا تفعل عن (إيمان) وليس على سبيل المكـر والخداع. بل لقد رأوا مـواقف عديـدة، ظهر منها أنها تقدمهم على أولادها الذين أنجبتهم بعد ذلك.

وكسبت السيدة كثيراً...

وإذا بأبناء الزوج يبادلونها حبـا بحب، وحنانا بحنان ، ويلمس الزوج ذلك عبر عشرات المواقف فتكبر قيمة الزوجة فى نظره ويزداد لها حبا.

تـرى لـو أنها فعلت مثلما يفعل كثيرون، فتعـاملت مـع أبنـاء زوجها على أنهم أبنـاء (ضرتها)، وأنهم أعداؤهـا، وأن أبناءهـا هى، الأولى بالـرعاية، ومن يجيء بعد ذلك فليـذهب إلى الجحيم.. لو أنها فعلت ذلك، لتحـولت حيـاتها هـى بـالفعل إلى جحيم، ولأحـاطتهـا مشـاعر الكـراهية لتنسج حـولها خيـوط عنكبوت تخنقهـا وتخنق معها أولادها..

فالحب يبنى، والكراهية تهدم..

الحب يشيع الجمال والمتعة والـراحة والطمأنينـة، أما الكـراهية فتشيع القبح والعذاب والقلق والحيرة.

وفجرت صاحبتنـا نفس الطاقة الذرية الانسانيـة فى تعاملها مع زوجها... كـان أكبر منها سنا بفـارق كبير، فتحولت فى خـدمته إلى ممـرضـة، وأبعدت عنـه (هم) الأولاد ومشكـلاتهم، حيث حـرصت بصفـة مستمـرة على أن تـواجههـا هى بنفسهـا، ولايـرى الأب الا النتيجة.. نتيجـة حل المشكلات، فتفرغ لحبهـا إلى درجة العشق، إذ كلما مـر يوم شعـر أنـه لا يستطيع الاستغنـاء عنها، وأنها سيـاج يحميه وسند يشد أزره وواحة يجد فيها الراحة وخلو البال.

لم تشعره أنها، بعد أن أنجبت قد انغمست فى تربية الأولاد، كما

يحدث لكثيرات، فيهملن الـزوج، بل حرصت دائما على أن تشعـره وتتعامل معـه على أنه (الأول) و(الأجدر بـالرعـاية)، وتنهى الأولاد إذا ما رفع أحد صوته، أو حـاول أن يكون مصدر ازعاج لأن (بابا) يحتاج إلى الراحـة، وإذ هى تعامله هكذا عن اقتنـاع ورضا واختيار لا بجبر وقهـر، بأنه (سـى السيد)، إذا بـه يضطـر إلى منافستهـا، فيحاول أن يغمرها بحب أكثر ويتعـامل معها وكأنها (شجرة الدر) أو (كليوبترا): ما تراه هى هو الصحيح، وما تشير به هو الصواب!! وكسبت صاحبتنا الكثير...

ذلك لأن الحب يقيم الجســور، والكـراهيـة تـوجـد الشقـوق والأخاديد..

الحب يشع دفئـا يـربط بين النـاس، والكـراهيـة تشيع بـرودة شديدة، تدفع كل كاره إلى أن يكون منكفئا على الذات..

ألم يقل سبحانه وتعالى مخاطبا الـرسول ﷺ عندما أعلن «فبما رحمة من الله لنت لهم، ولـــو كنت فظـا غليظ القلب لانفضـــوا من حولك».

وعلى نفس المنـوال تعاملت صـاحبتنـا مع إخوة الـزوج، فما إن تسمع بأن شقيقة لـه قد أصـابها مرض ولو (انفلـونزا) الا أسرعت لزيارتها مرة تلو أخرى، ولاتكف حتى تطمئن إلى شفائها.

بل ان الزوج، إذا حاصرتـه المشاغل، ومرت فترة دون أن يطمئن على اخـوتـه، ألحت عليـه صـاحبتنـا عليـه بضرورة أن يسأل عن شقيقـاتـه، فهـو كبيرهم الـذى ترنـو أبصـارهم إليـه، وهـو (ولى أمرهم)، وهم (ولايا)، بحاجـة إليه، لا يستطعن الاستغناء عنه وعن رؤيته وسماع صوته.

ومن اسبـوع لآخـر تحرص الحرص كلـه على أن تـدعـوهن إلى الغداء الـذى تتفنن فيه وغمرهـن أثناء الزيـارة بما لا حصر له من مظاهر الرعاية والاهتمام.

وهكذا دخل الجميع فى تنافس مع صاحبتنا فبادلناها حبا بحب واهتماما باهتمام، ورعاية برعاية، واذا بها تجد نفسها تعيش فى أمن حقيقى.. فالجميع تحولوا إلى حراس لها، وكل رجل كبير تحول لها إلى أب، وكل طفل إلى ابن، بمشاعره نحو الأم.

ذلك أن الذى يبذر الحب فى قلوب الآخرين يحولهم إلى جنود يحرسونه، وإلى عمال يخدمونه، وإلى مظلات تقية حرارة الشمس.

والعكس من ذلك تفعل الكراهية.. إذ تحول كل من نعرف إلى اعداء ومقاتلين، كل منهم يتحين الفرص للطعن والقتل والرمى بالحجارة..

وكان لصاحبتنا بنات ثلاثا، آن أوان زواجهن، فلما تم ذلك، استطاعت أن تحطم أسطورة (الحماة) الشائعة لتحل محلها صورة (الأم) الثانية، فقد اعتبرت زوج ابنتها ابنا جديدا رزقها الله به مما استدعى منها احاطته بكل ما تحيط به الأم ابنها من حب ورعاية. وعندما كانت ابنة لها تشكو زوجها فى أمر من الأمور، كانت تحرص على تهدئتها، وفتح الباب لعشرات الاحتمالات التى ربما تكون قد اضطرت الزوج إلى هذا وذاك مما أغضب الابنة ـ الزوجة.

وشيئا فشيئا شعر أزواج بنات صاحبتنا بأمومة حماتهم فسعوا هم كذلك إلى منافستها فى فيض الحب، وأصبح الواحد منهم يخجل لو أغضب زوجته أو أساء لها، لعلمه بأن ذلك سوف يؤلم الحماة الأم التى لم يروا منها ما يؤلمهم.

إننى أؤكد للقارىء أن هذه الحالة ليست (قصة) من نسج الخيال، فهى حالة واقعية أعرف شخوصها حق المعرفة.

هل نبالغ عندما ننسب إلى الحب فعل السحر التربوى ان صح هذا التعبير؟

كلا..

ان الحب فى مظهر من مظاهره.. عطاء.

ان الـذى يحب شخصـا يحرص الحرص كلــه على ان يسعـده ويكون على استعـداد لأن يبذل له كل مـا يستطيع.. ان الدنيـا كلها تختزل فى شخص المحبـوب، فيصبح ارضاؤه وكأنـه إرضاء للـدنيا كلها، واغضابه ومخاصمته وكأنه اغضاب ومخاصمة للدنيا كلها.

ومن هنا فعنـدما تتعامل الأم ويتعـامل الأب، ويتعامل المعلم مع الأبناء بالحب.. الحب الـدافىء، الناضج العاقل، يجد نفســه بالتبعية أمـام واجبات لا حصر لها، كلهـا تصب فى مصب بنـاء بشرى، على أقوى ما تكون الأسس، وعلى أجمل ما تكـون الصورة، ولغاية أنبل ما تكون الغايات.

وهذا كله (يسـهل) عملية التربية.

لن تكــون نصــائح الأب والأم والمعلـم مجرد (كـلام) جــاف، وواجب ثقيل، ينتهى أثره بالانتهاء مـن ترديده، وإنما يصبح وكأنه (رغبات) للأبناء أنفسهم، تجىء على السنة أولياء الأمور.

ولأن كــلا من الأب والأم والمعلم يتحــول فى هــذا المنــاخ إلى (محبوب)، سيحـرص الابن دائما على أن يفعل مـا يسعد محبـوبه، ويبتعـد عن كل ما يمكن أن يغضب محبـوبـه... عندئذ، لا يحتـاج الأب والأم والمعلم إلى ضرورة التـواجد مع الابن للمـراقبة، لأن كـلا منهم سيكـون قد استقر فى قلب الابـن ووجدانه ليتحـول إلى رقيب وموجه ذاتى..

بعض المتشككين سيقولون: ان هذا كلام (انشاء)...

لكنى أدعــوهم إلى تأمل حيــاة الأنبيـاء والــرسل والمصلحين والبحث عن سرنجـاحهم... طبعـا ســانـدهم الله عـز وجل، وسـهل مهمتهم ما عليـه دعوة كل منهم من حق، لكل الضلــع الثالث لمثلث النجاح، هو حب الناس لهم وحبهم للناس.

انظر إلى عدد من كبار زعماء التاريخ...

ان طاقة الحب التى فجروها فى قلوب شعوبهم أمدتهم بقوة فاقت قوة الجيوش المسلحة المعروفة... بعض هؤلاء الزعماء استغل هذه الطاقة فى تدمير الآخرين، وبعضهم استثمرها فى البناء والتعمير والاصلاح، تماما كما يحدث بالنسبة للطاقة الذرية، ان فى خدمة السلام، أو فى خدمة الحرب.

ان الحب عند كثيرين يقتصرغالبا على المعنى الجنسى، لكننا هنا نتحدث عن الحب البشرى. ان غاية الحب البشرى ليست مجرد التناسل، وإنما الحب البشرى هو التكامل والتعاون الاجتماعى والرقى العائلى والنمو الذهنى.

وليس هذا الذى نسميه (حبا جنسيا) ضروريا للتناسل، فإن السمك، مثلا يتناسل بالملايين، ومع ذلك لا يعرف الحب، لأن الذكر يلقى أحيانا بجراثيمه فى الماء، وكذلك الأنثى تلقى بويضاتها فى الماء مثله، ثم يتم التلاقح فى الماء دون أن يعرف الذكر الأنثى.

وعندما نتأمل الحيوان وقت التلاقح نجد أن العاطفة الغالبة والتى تتضح من سلوكه هى عاطفة الافتراس والأكل والالتهام، فالذكر يفترس الأنثى وليس بين الأثنين حنان. وأحيانا ينقلب التلاقح إلى شجار وقسوة وافتراس. وإذا كان الحب الجنسى بين البشر قد خالطته رقة وحنان وعطف، فإنما مرجع ذلك إلى الثقافة الاجتماعية التى ارتقت بها عواطفنا.

أما الحب البشرى فمرجعه إلى ينبوع آخر هو حب الأم لأولادها وحب هؤلاء لها، وهذه العاطفة بعيدة جداً عن الحب الجنسى، اذ تنضج حنانا ورقة وهو تحمل الأم والأبناء على أن يترافقوا ويتعاشروا ويتعاونوا.

إننا عندما نتأمل الحب الجنسى نجد أنه غريزة ذاهلة، ولكن

الحب البشرى عقل وضمير، ولذلك نحن نزداد وننمو بالحب الذى ترتقى به شخصياتنا، لأن هذا الحب يستنبط هنا أحسن الخصال، فى الحنان والرقة والظرف والكياسة. بل أحيانا فى التضحية. وهذا الحب هو الذى يجعل الانسان انسانا، وما ندعو إليه من اخاء بشرى، أو ما نقدره من خصال فى صديق، أو ما نتعلق به من آمال نرضى بأن نضحى لتحقيقها، انما كل هذا يعود إلى الحب البشرى الذى كسبناه من عواطف الأمومة والبنوة.

(سلامة موسى : فن الحب والحياة ، كتاب اليوم ط ١، ص ٧٥ ـ ٧٧).

ولكن الحب، مثل الشجاعة، يحتاج إلى تدريب. أننا نكسب شيئا من الحب العائلى، أى من علاقتنا بالأم والأخوة والأب، ولكن هذا الذى نكسبه عفوا فى طفولتنا وصبانا يحتاج إلى الرعاية والتنمية. ونستطيع أن نتعود الحب بالصداقة والتعاون والضيافة والخدمة، حتى ولو كانت طفولتنا قد أهملت أو كانت الفرص فيها قليلة لتنمية الحب.

هـذا جنـان أبى !!

صحيح أن هـذا هو عنوان فيلـم قديم للمطـربة صبـاح والفنان الراحل زكى رستم، لكنه قـول شائع يعبر عن حقيقة تجىء مخالفة لقول آخر مشهور. هذا القول الآخر المشهور هو (يعملوها الصغار ويقع فيها الكبـار). ولو شئنا الـدقة لعكسنا هـذا المثل الذى يمكن أن يكون: (يعملوها الكبار ويقع فيها الصغار)، تعبيرا عن أن عددا غير قليل من السلبيات السلوكية لدى الأطفال انما هى نتيجة تقليد وتأثر من الصغار للكبار.

فمن المشهـور أن الأمنيـات التى فشل الآبـاء والأمهـات ف تحقيقها، يحرصون على أن يحققها الأبناء. ولا بأس ف ذلك، ولكن المشكلـة تنشأ عنـدمـا لانراعـى مدى اتفـاق هـذا مع استعـدادات الأطفال وميولهم وطموحاتهم.

فـالأب الـذى فشل ف أن يلتحق بكليـة الطب ـ مثلا ـ نجـده حريصا الحرص كله، على ضرورة أن يلتحق بها ابنه أو ابنته، حتى ولو كان الابن لا يـرغبها، أو لا تؤهله قدراتـه على النجاح والتوفيق فيها.

أعرف أبـا كان ابنـه قد اختار تخصـص (الأدبى) لأنه يميل إلى كثير من علـومه، هاربـا من (العلمى) الذى كـان لا يطيق كثيرا من علومه، وكان الأب نفسـه قد تخصص ف (الأدبى) حيث التحق بعد ذلك بكليـة الحقوق وتخرج فيهـا، لكنهـا ضغط على ابنه بعـد فترة ليتحول إلى (العلمى)،لأن هذه كانت رغبتـه هو وقت أن كان طالبا، إلا أن أباه قـد أجبره على ماسار عليـه حيث كان الشائع منـذ عدة عقـود أن كلية الحقـوق هى الكليـة التى تخرج وزراء مصر، وذلك

فيما قبل ثورة يـوليو ١٩٥٢.. فالأب هنـا يكرر ما حـدث معه، مع فاروق هام هو أن الابن قد رسب رسوبا فاحشا!

وهنـاك أم كـانت تـراودهـا أمـانى وأحـلام بخصـوص شريك حياتها، لكن (النصيب) ـ حسب التعبير الشـائع ـ قد جاء لها بغير ذلك، فاذا بها تقف حجـر عثرة أمـام اختيار ابنتهـا لشريك حياتها، لأن هـذا الشريك المنتظـر لا تتـوافـر فيـه كثير من أحـلام الأم عن العريس كما ينبغى أن يكون.

ومثل هـذه الامثلـة كثير، يستطيع كل قـارىء أن يجد العشرات منها، سواء فى حياته الشخصية أو فيما سمع، أو فيما قرأ، أو فيما شـاهـد، فمازال منهج التفكير لـدى كثيريـن أن يـريـد الآخـر كما يحبـون هم ويهوون، لا كما يستطيع هـذا الآخـر أن يكـونـه. والنتيجة هى الشعور بعدم الـرضا، ومن ثم سوء التوافق، وضعف التكيف ومحاولات الثورة والتمرد.

ولربما كـان مشروعا حقـا أن يقف الأب والأم موقف صـدق مع الذات مفتشين عن العيـوب الخاصة التى قد لا يشعـر بها آخرون، و(العاهـات النفسية) التى يـدركونها فى أنفسهم، ويبـذلون أقصى مايستطيعون من جهد حتى يجنبوا أبناءهم اياها.

أعـرف أبـا كـانت ظـروف تـربيتـه تنأى بـه عن الانخـراط فى المجتمعات المختلفة: مناسبات، أفراح، نواد... الخ، حتى أصبح يميل إلى الانطواء. وبحكم ثقافته أدرك أن ذلك يمثل شروخا نفسية، لكنه أصبح لا قبل لـه على التخلص منهـا إذا صـارت وكأنها جـزءا من نسيج حياته.

لكنه الآن وقد صار أبا، هل يربى أبناءه كما تربى هو؟ كلا! لقد حريصا على أن يشجع أبناءه على الـذهاب إلى النادى، والخروج مع الاصدقـاء، والقيام بزيـارات، وحضور المنـاسبات، وعيا منـه بأنه،

بكل هـذا، انما يـوفر فـرصـا لكسب مزيـد من الخبرة، المؤديـة إلى النضج وكسب المعارف والاصدقاء والاندماج فى الحياة الاجتماعية.

وأعرف أبـا آخر انغمـس فى القراءة منـذ أن بدأ يعـرف القراءة، وكان هذا شيئا جميلا حقا، لكن القـاعدة المشهورة الخاصة بأن ما يزيد عن حده ينقلب إلى ضـده ظهرت هنا بشكل واضح. فلقد أحب هذا الأب فى طفـولته القـراءة إلى حد الجنـون الذى جعلـه ينفق كل وقته فيها، فلـم يشارك الأطفال الآخرين الاستمتـاع ببهجة الحياة، لم يلعب، لم يشـارك فى أنشطة المدرسـة... حتى فى عطلـة الصيف، قابع فى المنزل يقرأ دون أن يعطى نفسـه فرصة الترفيه والاستمتاع بأوقات الفراغ، فكان أن غلب عليه روح الجدية الزائدة، بل وجهامة الوجه وكثـرة العبوس، حتى أن النكتة كثيرا ما تفشـل فى اضـحاكه، وأقصى ما كـان يحدث هو الابتسـام الذى تشعـر معه بأنـه يبذل جهدا واضحا فيه.

أصبحت أحكام ومعـايير هذا الأب نتيجـة (كتب) وليست نتيجة مـواجهـات حقيقية مع مشكـلات الحيـاة، فكل مـا فى البيت الكتب يميل، غالبا، إلى (ما ينبغى أن يكون)، والألوان هى: إما أبيض وإما أسود، أمـا فى واقع الحية، فـالمسألـة مختلفة، فهناك (مـا يمكن أن يكون). وهناك (تـوفيق) و(توليف)، هناك (ما كـان كائن)، وهناك تعدد فى الألوان وتدرج.

وعنـدمـا أصبح أبـا لاحظ أن ابنـه، حتى قبل أن يتعلم القـراءة والكتابة، مغرم بالقصص المكتـوبة، لا ينام الا وهى تحت (المخدة) التى ينام عليها، يجىء بواحدة منها، لكل من يجده فى البيت، ليطلب منه أن يحكى له ما فيها.

فى البداية، أسعد هذا الأب.

لكنـه بعـد فترة لاحظ أنه عنـدمـا يأخـذ ابنه معـه إلى النـادى،

ينصرف الابن عن اللعب ليطلب أن يظل طول الوقت فى مكتبة النادى.

هنا تذكر الأب ما حدث له، وخشى على ابنه، فأخذ يقلل من اهتمامه بالقراءة بعض الشىء حتى يستمتع بفرص الطفولة المرحة فى النشاط واللعب، ويقيم توازنا بين القراءة واللعب.

وإذا كان هذا مما يتعلق بالسمات والعادات الخاصة التى تربى عليها كل من الأب والأم، فهناك مالا يقل عن ذلك أهمية: العلاقات بين الأب والأم.

فكلما يخلو بيت من صور خلاف بين الأب والأم... لكن كثيرين يغفلون عن أثر هذا الخلاف المدمر على الابناء عندما يندمجون فيه ويشعرون به..

ودع عنك، الآن، هذا الخلاف الحاد الذى يصل إلى حد الانفصال والطلاق.. وانما نشير إلى الخلافات العادية التى تحدث بين يوم وآخر حول المصروف والميزانية، والعلاقات بين الأهل والأقارب والأصدقاء، وبالسلوك الشخصى. وهكذا، لا ينبغى أبدا أن يتم التراشق بالاتهامات بين الزوج والزوجة أمام الأبناء، فضلا عن الوصول إلى درجة (الشتم) أحيانا، بل والاشتباك بالأيدى، واستخدام أدوات منزلية فى هذا العراك!!

- ان الأب والأم بالنسبة للطفل هما النموذج العالى للسلوك...

الأب، أمام الأبناء هو أعظم رجل فى العالم...

والأم، عند الأبناء، هى أحن أم فى العالم..

وعندما يتصارع الاثنان ويشتبكان، تسود الدنيا أمام الأبناء.. تتحطم النجوم والكواكب التى كانت تتلألأ فى سماء تفكيره وخياله، وتصاب بشخصيته بشروخ نفسية غاية فى العمق، ويبدأ الاهتزاز المزلزل لكثير من المثل والاخلاقيات.

اننـــا لا نستطيع أن نطلـب مستحيـــلا، فنقـــول لـــلأب والأم: لاتختلفـا، فنحن نسلم بأن هـــذا أمـر واقع، ولكننـا نطـالبهما بأن (يـداريـا) ذلك بقـدر الامكـان.. يـؤجـلاه إلى أن يكـون الأبنـاء فى الخارج.. خـارج المنـــزل..يقفـلان على نفسيهما غـــرفـة نـــومهما ويختلفـان كما يريـدان. أما أن يشهـد الأطفـال ذلك فهذه بـالفعل الجناية الكبرى فى حق الأبناء.

ومن أشد ما يبعث على الأسى، تلك البيوت التى تخلو من الأب!! ولسنا نشير إلى الوالد الذى مـات، أو انفصل عن اسرته بالطلاق أو لمرض طـويل، بل نود أن نشير إلى الأب الـذى يطغى عليه عملـه أو أصحابه أو مقهـاه، وما إلى ذلك، طغيانا يحرم اسرتـه من حضوره والأنس بـه، فيعتمـــد الصغـار فى هـــذه الاحـوال كل الاعتماد على امهاتهم فقط.

وهذا موقف عسير، خاصــة على الاطفال بعد سن الخامسة. ولا نبعد عن الصـواب اذا قلنا ان الوالد الـذى يعجز عن اقامـة الصلة والألفة بينـه وبين صغيره واصطناع روح الصحبة وإيـاه وإشعار الطفل بلزوم أبيـه فى حياتـه قبل سن الخامسة، غـالبا مـا لا يقوم بذلك البتة، بل حتى اذا هو اهتم بأمره، كان ذلك من قبيل الواجب، لا من قبيل المتعة به.

والاطفال سريعون فى التفـرقة بين اللهو فى نفسه، ومـا يبعثه فى نفس الـوالـد والطفل من متعـة حقيقيـة ورضـا، وبين مـا يبـذلـه الكبارمن جهود للقيام بتلك المهمة كواجب يثقل عليهم ويبعث فيهم السأم. ولا يضيق الـوالد وحـده بمثل تلك العلاقـة، بل يضيق بها الصغير أيضا.

وما أكثـر الآباء الذين لم يـذوقوا قط مـا فى صحبتهم لأطفالهم من هناء صحيح! بينما فخرهم بهم لا يقف عند حد. وهم لا يقفون

عن مـداومةالكـد فى تزويـد أبنـائهم بما يلزمهم من طعـام وملبس ومسكن مـريح، ويـرسلون بهم إلى المدراس الخاصـة والمصـايف، ويـواصلون السعى وراء الحصـول على مـا يلزم لـذلك وغيره من مـال. ولعلهم يظنـون على الـدوام أن ميعـاد تعـرفهم على الطفل سوف يحين يـوما عنـدما يكبر الطفل قليـلا، والطفل ينمو ويشب، وكلما نما وشب تكـونت شخصيتـه، واصطنـع من العـادات والخصـائص أنواعـا جـديدة، وتبلـورات أفكـاره ومشاعـره، حتى صـارت عقائده وآراءه.

وهـذه الآراء ممتلكات ثـابتة لـديه، ومنهـا فكرتـه عن والديـه، فالأب، كما قلنـا رمز لكل ما هو طيب، والأم تتغنى بمـدح هذا الأب وتتحدث عن قـدر ما يبذل من جهـد لتهيئة كل ما يستمتعـون به، وهى تقـول: ان (بـابـا) رجل طيـب ومخلص حنـون، ورغم هـذا، فالغالب أن تكـون فكرة الطفل عن أبيه فكرة غـامضة لايتصل بها الا قليل من الانفعـال، مثل فكـرتـه عن الأنبيـاء، أو عن أوليـاء الله الصـالحين، مع أنه يـود أن يعرف عن أبيه أكثر من هـذا القدر: هو يود أن يعرف فى الواقع: ماذا يفعل وكيف يتصرف؟ وهل هو لطيف يجيد التسلية؟ أيحب اللعب ويعرف كثيرا من القصص والحكايات؟ أترى: بابا يهتم بما له من ألعاب وكرات وأصحاب ومعلمين؟

وما أكثـر تلك الأمور وما اليهـا مما يستطيع الوالـد أن يتحدث مع طفلـه عنهـا، ولو فى أصيل يـوم من الأيـام عنـد النزهـة، أو فى المسـاء قبيل ذهاب الصغير إلى الفـراش، أو فى الصباح، على مـائدة الافطار.

وأشـد مـا يؤسف فى ذلك الموقف، أن الآبـاء لا يفطنـون إلى أن متعة الأب بصحبـة ابنه، أبقى أثرا وأكثـر اشباعا عن متعتـه بملكه ايـاه، فما أكثـر من رزقـوا أبناء، ومـا أقل من يعـرفـون أبنـاءهم ويفهمونهم ويعملون على صحبتهم.

ومن الاجابات المألوفة التى يسعها الأبناء من أبائهم عندما يعبرون عن ألمهم لانشغال الأب عنهم: ان هذا الانشغال ليس من أجلى وانما من أجلكم أنتم حتى أؤمن لكم مستقبلكم!!

ان هذه الاجابة تعكس وهما يسيطر على كثيرين من الآباء وهو أن تأمين المستقبل انما يكون بتوفير كم من المال. ان هذا الجانب هام بطبيعة الحال وضرورى، ولكن مالا يقل عن ذلك أهمية، أن الأبناء بحاجة إلى تأمين من نوع آخر.. بحاجة إلى زيادة رصيد دفء الحب الذى لا يشترى بالمال وانما بمجرد التواجد معا... التحادث معا.. التفاهم المشترك. انه يزود شخصية الأبناء بفيتامينات تبث الصحة والسلامة فى الشخصية، والا فبماذا تنفع الأموال إذا كدست، وعانى الابن من جفاف العاطفة وانغلاق القلوب وانكسار الجسور؟!

مرة أخرى.. ليست هذه كلمات تصب فى باب (الانشاء)، وانما هو حديث لابد أن نلح عليه فى كل مناسبة... ان الاحجار التى نبنى عليها أبناءنا بحاجة دائمة إلى (الأسمنت) الذى يشد بعضها إلى بعض، هذا (الاسمنت) هو تلك العلاقات الحميمة، والاتصال العاطفى والجسور الممتدة بين الآباء والأمهات والأبناء.

حتى لا يسكن الخوف أبناءنا !!

من حكم الله عـز وجل فى خلقــه أن بـذر فينـا الخوف حتى نستطيع حماية أنفسنا من المخاطر وتستمر الحياة إلى ما شاء الله.

إن هـذا الطفل الذى يحبـو، ويمد يـده إلى مصادر الكهـرباء ومـواقع اشتعال النار، أو يهم بأن يميل بجسمه فى البلكونة الخاصة لشقة فى طابق عال.. هـو يقوم ويقـدم على مثل هذه التصرفـات التى تفزعنـا نحن الآباء والأمهات فزعا شديدا، لأنها قد تـؤدى - إذا حدثت لا قدر الله- إلى أن يفقد حيـاته.. يقـدم على هذه التصرفـات لأن هذه الأمـور لم تدخل بعـد دائرة الخوف لديه.

ولـو تأملت العديـد من مخترعـات الإنســان سواء من حيث الأجهـزة والمعـدات أو من حيث التنظيمات، فسـوف تجـــد أنها مـا كـانت إلا درءًا لخوف ما...

خوفـا من المرض... خوفا من الحريـق... خوفا من الموت... خـوفا من السرقة... إلى غير هذا وذاك من مخاوف لا حصر لها..

الخوف إذن مفجر لكثير من طاقات الإبداع والإختراع والإبتكار..

والخوف إذن يحيى التقدم والتطور والحضارة ويسهم فى ذلك.

ومع هذا فهناك صور أخـرى من الخوف قد تؤدى إلى العكس من ذلك تمامـا مصداقـا للحكمـة التى تقول: مـا زاد شىء عن حـده إلا انقلب إلى ضده..

إننا مطالبون - مثلا — بألا نلقى بأيدينا إلى التهلكة عن طريق التهور، لكن المبالغة والغلو فى ذلك تدفعنـا إلى (الجبن) وتقعد الهمة، ومن هنا قال فيلسوف اليونان الشهير أرسطـو : إن الفضيلة وسط بين رذيلتين: افراط وتفريط، فالتغافل عن الخوف هنا يـؤدى بالإنسان إلى التهور الذى ينتهى

إلى التهلكـة، والمبالغـة فيـه تؤدى إلى الجبن الـذى يشل حـركة الإنسـان ويصيب حـركة الحيـاة بالشلل، وفى أحسن التقـديرات، بـالبطء السيىء، وتصبح الفضيلة هنـا هى (الشجاعة) التى هى وسط بين هـذين الطرفين المقبوحين: التهور والجبن.

وإذا كـانت هناك مصـادر معقـولة لإثـارة الخوف لـدى أبنائنـا، مثل الحشرات الضارة وخاصة العقارب والثعابين، وكذلك الحيوانات المتوحشة، والنـار، والكهربـاء ـــ فى غير استعمالاتهما المشروعة، وآلات القتل والـذبح والتدمير.. وهكذا، إلا أننـا، أحيانا ما نجد أحد أبنـائنا يخاف مما ليس من طبيعته أن يكـون مصدرا للخـوف، ولا يكون ذلـك إلا نتيجة ارتبـاط هذا المصدر بحادث مؤلم أو اقترانه بمصدر حقيقى للخوف.

كانت (ج) تبلغ من العمـر ست سنوات عندمـا شاهدت حـادثة مثيرة جدا: كان حمار يجر عربة للألبان، فتملكه ذعر بسبب ما، دفعه إلى الجرى جـريـا جنونيـا فى أحـد الشـوارع المزدحمة، فانقلبت العـربـة وتحطمت الزجـاجات وتنـاثر اللبن، واصطدم الحمار بأحـد الأسوار، فأخـذ يرفص ويخرج أصواتـا مخيفة مـروعة، وأسرعت الطفلة إلى الـدار شاحبـة اللون مذعـورة لا تتكلم، وصارت بعد هـذه الحادثة تخاف الذهـاب إلى المدرسة وحـدهـا، ثم امتنعت عن المرور فى الطـريق الـذى وقعت فيـه الحادثـة، وأصبحت كلما وقع بصرهـا على حمار تملكها الخوف، خـوف يكاد يـزهق أنفاسهـا، هذا إلى ما كـان يخالط نومها ـ زمنـا بعد الحادثة ـــ من أحلام مزعجـة يصحبها منظـر الحادثة التى شـاهدتها من قبل، فكـانت تصيح وتطلب العون حتى لا تقتحم الحمير غرفتها.

ومن الحكمـة بعـد أن يتعـرض الطفل لإحـدى التجـارب المزعجـة أن نشجعـه على التحدث عنهـا كما يشاء، لأنـه كلما تحدث عنها ظهـرت تلك التجربة أكثر ألفة وأقل غرابة، وضعف الخطر من أن تدفن فى أعماق نفسه فيكون لها أثـر بالغ فى حيـاته المقبلـة. وكثيرا ما يخطىء المرء حين ينصح

الطفل أن يتناسى الأمـر قائلا لـه: لا تتحدث عنها، أو: فكـر فى شىء آخر، لأن لمثل هذه التجربـة لونا فاقعا من الخوف لا يمكن نسيـانه، فمن اللازم له أن يتعرف عليها.

إن من الخير أن يمتنع الآباء والكبار عن السخـرية بالصغير إذا خاف، أو عن القـول بأنه شـديد الغباوة، أو أن يـدعوا المسألـة تمر دون تعليق. ويجدر بهم أن يبينوا له أنهم يقـدرون تماما ما يشعر به، وأن يـذكروا له أن كثرة الناس تواجه مثل هـذه المشاعر السيئة بين حين وآخر فى كثير من أمور الحياة، وأن يؤكدوا له أن هذا الشعور لن يطول به. هوِّن ـ مع التزام الصدق ـ من الخطر الحقيقى للتجربـة التى مر بها الطفل، وعد بـه شيئا فشيئا إلى أحد وجوه المنظر الذى أزعجه مرة بعد مرة.

فنحن فى حالة (ج) كنا نقترب شيئا فشيئـا من منظر الحادث يوما بعد يـوم، فكـانت البنت تـلاحـظ الحمير على البعـد، ومن الصـور التى تمثل الأطفال يلعبون حول الحمير، أخـذت تطمئن إلى أن الحمار حيوان (غلبان) يغلب عليه الخير لا الشر. ومع أن الأحلام لم تنقطع للتو عقب ذلك، إلا أنها فقدت كل مظهر للذعر. وسرعان مـا هضمت الطفلة تلك التجربة وتمثلتها، حتى أنها لم تعد تستطيع أن تتحدث دون انفعال فحسب، بل وتمكنت من أن تتابع حياتها دون أن يتحكم فيها الخوف.

ومن المألـوف أن نسمع من كثير من الآبـاء والأمهات كلمات وعبـارات يتصورون أنها سـوف تمنعهم عن عمل لا يرغبـون فيه، دون أن يـدركوا الآثـار السلبية الخطيرة التى تصبح بـذورا تبذر فى أعماق الأطفـال وتكبر معهم وتعمم فيفقدون الثقة بأنفسهم ويخافـون مما لا يخيف، فضلا عما يصاحب هذا وذاك من مظاهر سخرية الآخرين.

فإذا رأينـا طفلا لا يقبل على الطعـام، يبادر أحـد الوالديـن إلى تحذيره بأنه إذا لم يأكل فسوف يعطيه (حقنة)..

فالحقنـة بالنسبة للطفل مؤلمة ولا يعـى وعيا متعمقا بدورهـا فى عملية

الشفـاء من الأمراض، ويـؤدى ذلك التخـويف إلى زيـادة مشاعـر الضيق والحذر منها والهروب.

ولا يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل ربما اقترنـت آلام الحقنة بموقف الأكل نفسه، فتنسحب عليـه مشاعر مؤلمة وأحـاسيس غير سارة، ويصبح الموقف مما ينطبق عليه القول (جه يكحلها عماها)!!

وكذلك الأمـر عندمـا نخوف أبنـاءنا بأننا سنـأتى لهم بـ(العسكرى)، فالعسكرى مفـروض أنه نائب عن الدولة فى حماية النـاس والمحافظة على الممتلكات العامة والخاصة وقضاءالحقـوق ومساعدة بعض ذوى العاهات المارين بالشـارع فى العبور أو ركوب المواصـلات أو غير ذلك من المطالب، فإذا بنا بهذا التخـويف الأهوج نقـدمه لهم على أنـه (عقاب)، فنبـذر بذلك بذور الكراهية فى قلوب أبنائنا نحو الشرطة والسلطة!!

وهناك قائمة طـويلة من التهديدات التى نعرف مقدمـا أننا لن ننفذها، مثل (حاذبحك) و (حاكسر رجلك) و (حاكسر دماغك) و (حاكويك بالنار) و (حاقطع دراعك).. ألخ

إننا نطلق هذه التهديـدات التى نعرف عن ثقة بأنها مجرد (كلام)، لكن الطفل يتلقاها بجدية فيصاب بـالفزع والهلع... صـحيح أننا قد نضمن أنه سينفـذ ما نطلبـه منه، لكنـه شيئـا فشيئا سيـدرك هو كـذلك أنها مجرد (كلام)، وأنه لأمر خطير للغاية أن يستقـر فى ذهن الأبناء أن ما يقوله الآباء والأمهات لا يعنـونه حقيقة، وإنما هـو مجرد (كلام)، إذ قد يـؤدى هذا إلى أن يفقد الأبناء ثقتهم فى كلام الـوالدين، وقد (يعممون) فتضعف ثقتهم فى كلامهم على وجه العموم.

إن كثـرة التخويف والمبـالغة فيـه لا تضعف ثقة الطفل بنفســه فقط، وإنما تصيبـه بالتردد والقلق وقلـة العمل خـوفا من أن يتعـرض للتأنيب والتخطئة.

والطفل الذى تضعف ثقتـه بنفسه يكون أكثر من غيره تقبـلا لسيطرة الآخرين عليه من زملائه وأصدقـائه فيما بعد مما لا تؤمن معه النتيجة، إذ

قـد يكون هـذا الآخر (لا أخـلاقيـا)، أو (عربيـدا) أو (شريرا)، على وجـه العموم.

ولنقرأ معـا هذه القـواعد الهامـة التى يسوقهـا لنا د. مـلاك جرجس، لوقاية أطفالنا من الخوف:

— يجب إحـاطـة الطفل بجـو من الـدفء العـاطفى يشعـره بـالأمن والطمأنينة، على أن يتسم العطف والحنان بالحزم بدرجة معقولة ومرنة.

— إن صادف الطفل مـا يخيفه أو يـزعجه، لا تسـاعده على نسيـانه، فالنسيـان يدفن المخـاوف فى النفس ثم تصبح مصدر القلـق والإضطراب النفسى والرعب، ولكن يجب أن نتفـاهم مع الطفل ونوضح لـه الأمور بما يجعلـه يهون على نفســه ولا يبـالغ فى الخوف. وليس معنى ذلك أبـدا أن نخدع الطفل، كما يجب أن نجيب دائما على أسئلة الطفل لكى يطمئن.

— تـربيـة روح الاستقـلال والاعتماد على النفس فى الطفل، كلما أمكن ممـا يساعـد على تكوين الثقـة فى النفس مع إشعـاره بالتقـدير وتفـادى السخـرية منـه لأى سبب كان، مع الاقـلاع عن عادة المقـارنة بينـه وبين اخوته أو أقرانه بقصد تحميسه للجد والإجتهاد.

— يجب أن يكون سلوك الآباء والأمهات متـزنا وهادئا خاليا من الهلع والفـزع فى أى موقف من المواقف خصـوصا إذا مـرض الطفل أو أصابـه مكروه، لأن جـزع الآباء ينقله الطفل على نفســه، كما أنه يتعلم الإستجـابة لمواقف الحياة بنفس الأسلوب الذى يقابله به الآباء والأمهات.

— يجب على الآباء والأمهات مساعـدة الطفل على مواجهة المواقف التى ارتبطت بـذهنه بـانفعـال الخوف كالخوف من القطط أو الكـلاب أو الماء، وذلك بتشجيعه، ولكن ليس بدفعـه دفعا شديدا أو بزجـره ونقده تحميسا لـه ليقبل عليهـا. يجب أن نلقنها الحقـائق ونـوضح لـه أنه لا خطـورة فى الموقف إلى أن يقتنع ويسلك السلوك السوى بدافع من نفسه.

— يجب أن يستعمل الآبـاء والأمهات انفعـال الخوف البناء فى تنمية

شخصية (أى طفل) وتعـويده النظـام والواجب، دون مبـالغة، فنسـاعده بذلك على المحافظة على نفسه وعلى التكيف مع المجتمع.

— يجب إبعـاد الطفل عن مثيرات الخوف مثل الـروايات المثيرة إثـارة شديدة، وحمايته من الخرافات السائدة فى المجتمع.

— يجب ألا نسرف فى حث الطفل الصغير على التدين والسلـوك القويم عن طريق التخـويف بجهنم وعقاب الله، وإلا كونا عنده مـن الصغر مركب الشعور بالذنب.

— يجب أن ندرك أن الطفـل الصغير فى الحياة مثله مثل إنسـان دخل غابـة يجهل ما فيها ويخشاهـا، ولذلك وجب مساعـدة الطفل للتعرف على الحياة ليشعر بالأمن والطمأنينة.

وأخيرا، لابد أن نتذكر أن الجندى مهما كـانت قوة السلاح الذى فى يده، إذا وجدنـاه مرتعشا فلن يستخدام هـذا السلاح، بل وربما دمر بـه نفسه، وأبناؤنا هم جنود ندربهم ونـربيهم ونعلمهم كى يخوضوا سلسلة متصلة من معارك الحياة، وتلك المعارك التى لا يفلح فى مـواجهتها جندى ترتعش يده الحاملة للسلاح خوفا وضعفا فى ثقته بنفسه.

هو يسأل.. إذن فهو ينمو!

كانت الأم، مدرسة الفلسفة والاجتماع، فى رحلة مدرسية إلى (الفيوم)، وخطر على بالها أن تفاجىء طفلها الذى لم يكن قد تجاوز أربعة أعوام، بهدية (حية)، هى عبارة عن (كتكوتين) صغيرين .

واستطاعت أن تدبر لهما مكانا خاصا فى ركن من أركان (البلكونة).

كانت فرحة الطفل بهما واضحة وسعادته بهما غامرة، فما إن يستيقظ من النوم صباحا حتى يسرع إليهما يلاعبهما .

وبعد ثلاثة أو أربعة أيام، فوجىء بأن أحدهما لايتحرك، فتصور أنه نائم، فأخذ يحركه لعله يستيقظ، لكن بلا فائدة .

أسرع إلى أمه باكيا شاكيا ، ولما جاءت الأم لترى ما حدث، أدركت الحقيقة، فقالت للطفل إن (الكتكوت) مات!!

لكن الطفل لم يسكت، اذ سرعان ما سألها :

— يعنى إيه مات يا ماما ؟

أجابت :

— يعنى نام ولن يستيقظ أبدا .

فعاد يسأل :

— ومن الذى أماته ؟

أجابت :

— الله ، هو الذى خلقه ، وهو الذى يميته .

لكن الطفل استمر يسأل :

— ولماذا يميته؟ ألا يعرف أننى أحبه ؟

قالت الأم :

— يعـرف طبعـا أنك تحبـه ، ولكن لكل شـىء نهايـة، وأخـذت تسوق له بعض أمثلة لأشياء تنتهى وتختفى من أمام أنظارنا .

وإذا كـانت هذه الأم — بحكم ثقـافتهـا — قد صمـدت بعض الشـىء أمـام سيل منهمز من تسـاؤلات الطفل، إلا أن هناك أمهـات كثيرات لايستطعن الصمود، فبعد إجابتين أو ثلاث، تصرخ الواحدة فى الطفل : كفى.

إن كثيرا من الآبـاء والأمهـات لايـدركـــون مـدى جنـايتهم على أبنائهم بكفهم عن مواصلة التساؤل .

ان العـالم أمـام الطفل معظمـــه لم يكتشفـه بعـد.. عـالم ملىء بالعديد مما يجهله.. عالم ظلام لم يبدده بعد نور المعرفة .

والانسان بطبعه قد يحتمل الظلام بعض الوقت، لكنه يشتاق إلى النـور، والانسان بطبعـه يكره القلق والحيرة والاضطـراب، ويتطلع إلى الاستقـرار والطمأنينة، وحـالة الجهل تمثل خطـرا على حياتـه، فيظل قلقا حائرا مضطربـا، فإذا (عرف) تيقن، وإذا تيقن ، استطاع أن يتصرف ويسلك، لأننـــا لانستطيع السلـوك إلا بنـــاء على يقين، وهل يستقيم يقين مع جهل ؟!

إذا كنت فى ضيـافة أحـد الأصدقـاء وسـألك عما تحب أن تشرب وأجبت: قهوة، ونسيت أن تـذكر له هل هى (ســادة) أم (مضبوط) أم (على الـريحة)، أم (سكـر زيادة)، وجـاءت القهـوة، ستكـون فى حــالـة (شك) من طعمهـا، ولـــذلك لن تقبل على شربها إلا بعـد أن تسأل عن ذلك، ان الشـك حـالـة جهـل، وهـو يعنى التـــوقف عن السلوك، فإذا أجابك المضيف بأن حالـة القهوة هو ما تحب، أقبلت على الشرب لأنك تكون قد وصلت إلى (يقين) فيسهل عليك التصرف والسلوك .

هكذا، المعرفة دائما، أساس السلوك، وكلما (عرفنا) تفتحت أمامنا سبل السلوك والتصرف، وكلما جهلنا، انسدت أمامنا هذه السبل .

وكلما طرح الطفل سؤالا، فمعنى ذلك أنه أمام حاله مجهولة اكتشف حاجته إلى معرفتها ليحسن التفكير والسلوك إزاءها، وبالتالى كلما أجبنا على سؤاله أو أرشدناه إلى كيفية العثور على الاجابة، ساعدناه بذلك على إضافة (معرفة) إليه، توسع من أفقه وتفتح له مجالا جديدا يتصرف بوعى تجاهه .

وعندما نكف عن تحمل تساؤلات الطفل ونطالبه بالسكوت، فلاينبغى أن نتصور أنه سيتوقف..

انه سوف يكرر المحاولة مع آخر.. فإذا فشل سيظل يكرر المحاولة. وهنا من يدرى فقد يتلقى إجابة غير صحيحة، وقد يتلقى إجابة تحمل قدرا كبيرا من الخرافة، فيكون الخطأ هناك مركبا، والذنب أعظم .

ان منطقة التساؤل عند الأطفال واسعة، لأنه يريد أن يكتشف العالم من حوله، ونفاجأ أحيانا بمثل هذه التساؤلات التى نعتبرها (غريبة وجريئة).

ومن أشهر الأسئلة التى يسألها الأطفال : من أين جئت ؟

ان أى انسان يجد نفسه فى مكان غريب لابد أن يسأل من حوله: كيف جئت إلى هنا؟ والطفل يجد فى نفسه فجأة فى الحياة، ومن حقه ومن الطبيعى أن يسأل: من أين جئت أو كيف جئت إلى الدنيا؟

وللأسف فإن عددا من الآباء والأمهات يجيب بأن (الطبيب أحضرك لنا فى شنطة) أو (وجدناك على باب الجامع)، أو (العصافير وضعتك لنا فى البلكونة).. إلى غير ذلك من الاجابات الخرافية البعيدة عن الواقع .

وقد يشعر بعض الآباء أن السؤال شـديد الحساسية، وأنه ليس من الحكمـة أن يجيبوا على الطفل، ومن ثم يتهـربـون من الاجابـة بالـرد التقليدى: (هـذه الموضوعـات من شأن الكبار، وعنـدما تكبر سوف تعرفها) .

ان الاتجاه التربـوى السليم هو أن تظهـر الأم اهتمامها بسـؤال الطفل، ويكفى جدا أن تقول لطفلهـا ابن الأربع أو الخمس سنوات، انه جاء إلى الـدنيا من بطن أمه. وإذا استرسل فى الأسئلـة تقول له (ان كل طفل مثلــه يكبر أولا داخل الأم حتى يستطيـع أن يعيش وحده، فيخرج إلى الدنيا ولايظل متعلقا بأمه).

وعندمـا يصل الطفل إلى سن السابعة أو الثامنـة، يمكن للأم أن تستعين فى إجابتها بالتمثيل بمخلوقـات يراها الطفل ويعرفها، ومن أهمها الطيور والحيوانات الأليفة، فتقول له: (الطفل يخرج من بطن أمه مثل خروج البيضة من الفرخة) .

وطبعـا كلما احتك الطفل فى بيئتــه الاجتماعيـة فى المنـزل أو فى المدرسـة أو فى غيرهــا، بـالحيـوان والنبـات واكتسب عـن طـريق الملاحظـة الحسيـة وغير الحسيـة لحياة النبـات وحيـاة الحيـوان، معلومـات، ساعد ذلك على كسب معرفـة بجوانب خاصة بـالإنسان مشابهة.

وممـا يلفت النظر حقـا الصيغة الغـالبة على كثير من تسـاؤلات الأطفـال، فإذا قـال الأب انــه (خـارج)، وسأل الطفل (رايح فين؟) وأجـاب الأب (إلى الشغل)، غــالبـا مـا يسأل الطفـل: (ليـه؟) فإذا أجبناه، يظل طارحا هذه الأداة: ليه؟!

و(ليــه) هــذه هـى ســؤال عن «العلــة»، عـن (السبب)، عن (الحكمة)...

انه سؤال يكشف لنا عن أن هذا الطفل (مشروع فيلسوف) كبير

يبحث ويجرى دائما وراء (العلة) فى الوجـود، الشغل الشاغل لكبار الفلاسفة، لكننا كثيرا ما (نـزهق) ولانستطيع الاستمرار فى الاجابة فنقطع الحديث ونبتر القضيـة لنريح دمـاغنا، لكنا فى نفس الـوقت نخنق هـذه البذرة الصغيرة التى لـو رعيناهـا لأنبتت فيلسوفـا أو مفكرا حقيقيا .

وليست المسألـة هى مجرد ان التســاؤل يفتح البـاب لمعـارف جـديـدة، ولكن التـدرب والتعـود على ذلـك سبيل خطير من سبل تكوين شخصيـة الواثق من نفســه، الذى يعتمد على عقلـه.. البعيد عن أن يكون مقلدا (إمعة) .

ان الانسـان يتعـرض يوميـا لعشرات المعلومـات التى تغمره عبر الاذاعة والتليفـزيون والصحافـة، والكتب المختلفة والكم الأكبر من الناس تتلقى كل هذا بتسليم غـريب، مفترضة أنه (حقيقة) دون أن تتوقف لتسـأل: هل هذا صحيح ؟

ان طـرح هذا التســاؤل يعنى بذر روح نقـدية لاتسلم بكل مـا يكتب وكل مـــا يقـــال، وانما تسعى إلى التحقـق منـــه.. تبحث عن البرهان والدليل والحجة، فتبنى أفكارها وآراءها على يقين واقتناع.

لقـد كـان آلاف النـاس يسمعـــون ويقـرأون رأى أرسطـو بأن الانسـان إذا أسقط فى نفس اللحظة، من مكـان عال كرتين مختلفتى الـــوزن إلى الأرض، فسـوف يصـــلان فى وقتين مختلفين ، وأخـــذ الجميع هذا الرأى مسلما به، ولم لا؟ أليس قائله هو أرسطو، العقل الشامخ والمفكر الاغـريقى الكبير؟ وهل يجوز لنا أن نشكك فى رأى هذا العملاق؟

لكن واحـدا من العلماء سأل نفســـه : هل هـذا صحيح؟ ولكى يجيب، كان لابـد من التجربة، فإذا بـالتجربة تظهـر خطأ أرسطو، وينفتح البـاب واسعا على مصراعيـه لتحول كبير فى مجرى التفكير الانسانى عبر عصور طويلة .

ان الأطفال فى مرحلة الطفولة، وخصوصا فى الثالثة إلى السادسة، يزجون بأنوفهم فى كل شىء، ويتساءلون عن كل ما يحيط بهم مما يغمض عليهم فهم أسراره ويساعدهم نموهم على تناول كل شىء وفتح كل مغلق وتقليب كل مجهول، وباختصار، فإن كل ما لايعرفونه يصبح موضوعا للتساؤل والتعرف والاستطلاع .

ومن الطبيعى أن تدور بعض الأسئلة حول مسائل الميلاد والتناسل والاختلاف بين الذكر والانثى ، وتكون الأسئلة فى البداية ساذجة بسيطة، ولكنها لا تلبث أن تتعمق وتتزايد مع النضج العقلى، ومن أمثلة هذه التساؤلات، والتى توجد فى جميع الثقافات :

يسأل الطفل عن انتفاخ بطن أمه ؟

عن سبب وجود ثديين للأم وعن فائدتهما ؟

من أين يأتى لبن الأم الذى ترضعه للصغير ؟

يسأل عن سبب وجود ثقب فى بطن أمه ؟

كما يوجه أسئلة للتعرف على الفروق الجنسية ؟

لماذا أنا لست مثل أخى؟ سؤال من بنت، وتشير إلى عضو التناسل، أو لماذا لايوجد لى مثل هذا ؟

أسئلة تدور حول استعمال المرحاض وكيف يختلف من الذكر والأنثى: لماذا لانستحم أنا وأختى أو أنا وأبى معا ؟

لماذا يوجد فرق بين الولد والبنت ؟

وتتطور هذه الأسئلة فى سن السابعة، وعندما يذهب الطفل إلى المدرسة :

من الذى وضع الطفل فى بطن الأم ؟

هل من الممكن أن يكون لنا أطفال؟ أو أملك طفلا ؟

لماذا لا يلد الرجال أطفالا ؟

كيف يولد الطفل ؟
لماذا يتزوج الناس ؟
لماذا يتزوج الرجل من امرأة ؟
لماذا لا يتزوج الأخ من أخته ؟

تلك أسئلة عميقة ومحرجة ، وهى فى كلتا الحالتين مما قد يصعب على الآباء الاجابة عنها، ولكن الطفل لايكف عن ترديدها أمام أبويه ويلح فى الحصول على إجابة عنها ، عندما يسأل الطفل ويتحدث عن أعضائه التناسلية، فهو يتحدث بنفس الطريقة التى يتحدث بها عن ذراعيه أو قدميه ،بمعنى أن الطفل عندما يسأل سؤالا لايعتبره قبيحا، أو غير لائق. على أن استجابة الوالدين لأسئلة أطفالهما قد لاتحقق الأهداف المطلوبة فى كثير من الأحيان، فأحيانا ما يتجاهل الوالدان أسئلة الطفل كلية وأحيانا يردان بعنف عليها .

ليس فى مقدور الأم دائما أن تعثر على الاجابة التربوية السليمة لأسئلة طفلها المتلهف على سماع الاجابة على أسئلته، وفى كثير من الدول فى الخارج، توجد عيادات نفسية يسمونها (العيادات الارشادية للأمهات والآباء) تذهب إليها الأمهات لمساعدتهن على الاجابة المعقولة لأسئلة أطفالهن.. حبذا لو أنشأنا مثل هذه العيادات، ولو عن طريق التليفزيون فى برامج المرأة .

والشارع مدرسة!!

إذا كنا قد اعتبرنا (الحياة) بأكملها مدرسة ...

وإذا كنا قد اعتبرنا (الوطن) بكل فئاته وثقافته ونظمه مدرسة أخرى..

فها نحن الآن نضيق الدائرة لنعتبر (الشارع) فى مصر بصفة خاصة مدرسة!!

وإذا كنا ننظر إلى (مدرسة الحياة) باعتبارها مجمعا انسانيا ضخما يضم أشتاتا وألوانا من التربية التى تتدرج من الأسود الداكن إلى الأبيض الناصع... من أروع وأعظم ما يمكن.

وإذا كنا ننظر إلى مدرسة الوطن بنفس النهج على وجه التقريب، فإن نظرتنا إلى مدرسة الشارع مختلفة، تكاد لاترى فيها خيرا، لاعلى وجه العموم وإنما من حيث واقعه المعاش وحالته الراهنة .

ولنبدأ الحكاية أولا من حيث بداية تحول الشارع إلى مدرسة ..

فى معظم أنحاء العالم.. وفى دوله المختلفة، ليس مستحيلا أن يجد المواطن بيتا مستقلا منفردا يسكن فيه بمفرده أو مع عائلته ..

لكن المواطن فى مصر يعتبر (البيت) حلما من الأحلام التى تداعب جفونه، إلى الدرجة التى أصبحنا نجد فيها تأخرا واضحا فى سن الزواج، فإذا سألنا عن الأسباب، وجدنا صعوبة الحصول على مسكن تأتى فى المقدمة .

والبيت عند كثيرين فى دول العالم المختلفة مسكن خاص مستقل، ليس بالضرورة فخما.. لقد عشنا سنوات فى القرية، لكل أسرة منا بيتها المتواضع من (الطين) فى أغلب الأحوال، أو بمعنى أصح من الطوب اللبن المسقوف بالخشب، لكن ميزته الكبرى، كانت اتساعه، وامتلاكه واستقلاله .

وعنـدمـا كنـــا نشير إلى (نـواقص) فى أسرة، كنـا نشير إلى أنها تسكن (بالإيجار)..

اختفت معظم هذه البيـوت، وحلت محلها (العمارات) التى تضم شققا بالعشرات، وفى كل شقة تسكن أسرة كاملة .

ان اختفاء (البيت) المملوك ملكية خـاصـة، المستقل، والتحول إلى سكن فى شقة، فى عمارة مثلا انقلاب اجتماعى كبير أفرز العديد من الملابسات التى أساءت إلى تربية أبنائنا .

فالكـم الأكبر من السكان يسكنـون شققا صغيرة يتكـدس فيها الأبنـاء فى مسـاحـة صغيرة، أصبح الكـون أمـام الطفل مسـاحـة محدودة من الأمتـار التى قد لاتـزيد على أصـابع اليد. ويمثل هـذا الضيق الشديـد ضغطا على جهـازه العصبى وأفقه العقلى، ويصيب العلاقات المنزلية ببعض توتر .

ولأن الأطفـال لايستطيعون تحمل (الاعتقـال) فى هذه الـزنزانـة المنزليـة الضيقة المزدحمة فانهم يفـرون إلى الشارع هربـا وضيقا حيث يتحـرر صوتهم من التحـذيـرات المستمرة، ويستطيعـون أن (يلعبوا)، هـذا اللعب الذى هـو متنفس أسـاسى للطاقـات الزائدة، وحتى للطاقة الحيوية المعتادة .

ليس هــذا فحسب، فنحن نعلم كم هى قصيرة فترة الدراســة فى المدرسة المصرية.

لقد سمعنا مـرارا وتكرارا عن إطالة العـام الدراسى، لكن الواقع العملى حتى الآن أكـد أن العـام الـدراسى لايــزيـد بأى حـال من الأحوال على سبعة أشهر فى أحسن الظروف.

فماذا يفعل الأبناء فى الأشهر الخمسة الباقية؟

إن مساكنهم لاتتحملهم.. لكن الشارع فيه متسع للجميع!!

حتى اليـــوم المدرسى، فمازالت مـدارس كثيرة تعمل أكثـــر من فترة، وهـذا يؤدى بـالتالى إلى اختـزال اليوم المدرسى إلى ثـلاث أو

أربع ساعات، وغالبا مـايكون كبار الأسرة بالخارج، فيضطر الأبناء إلى انتظارهم عن طريق اللعب فى الشارع!

وكثير من الأمهات الآن يعملن، ولم تعد الأسرة الممتـدة موجودة، الجدة، أو الجد بصفـة خاصـة، حتى يشاركـوا فى رعايـة الأولاد، وتكون النتيجة كذلك هى أن يتجه الصغار إلى الشارع.

إن التطور الاجتماعى له شروطه و(ثمنـه) لكننا فى الغالب نسينا هذا!!

كتبنا المقـالات وألفنا الكتب وأذعنا الأحـاديث والخطب مطالبين بتحرير المرأة، حيـث تركز مفهوم التحريـر فى خروج المرأة للعمل، دون أن نعى أن التطور منظمـومة متكاملة من عدة عنـاصر ترتبط بها، بحيث إذا اقتصرنـا على عنصر واحـد وأغفلنـا البـاقى، اعتبر عنصر التقدم المنفذ (وبالا) وطغت آثاره السلبية على إيجابياته.

كـان المفـروض أن يترافق مع خـروج المرأة إلى العمل، عنـاصر كثيرة لسنا فى مجال الآن لشرحهـا، مثل ضرورة مشاركـة الرجل فى عمل المنزل، ومثل المساهمة فى توفير الأجهـزة المنزلية الحديثة التى توفر الوقت والجهد.. إلخ.

لكن مايهمنـا هنا بصفة خـاصة، مـاكان لابد منـه: الإكثار من إنشاء دور الحضانة ورياض الأطفال.

إن الاحصـاءات تشير إلى أن الأطفال الملتحقين بـدور الحضانـة ورياض الأطفـال لاتزيـد نسبتهم على ٣٪ من جملة الأطفـال الذين تقل أعمارهم عن السادسة.

ليست المسـألة أن هناك أمهات يتركن الطفل عند (الجدة) أو عند جارة أخـرى، ولكنها مسـألة منـاخ تربوى لابـد منه حتى نستطيع تنشئـة الطفل وهو بعيـد عن أمـه تنشئـة تقوم على أسس نفسيـة علمية صحيحة.

إننا نشير كثيرا إلى معرفتنا بأن سنوات الطفل الأولى ترسم فيها كثير من معالم شخصيته طوال عمره، فهل ترجمنا هذه المعرفة إلى عمل إيجابى يشير إلى التعامل مع فترة ماقبل السادسة باعتبارها الأهم فعلا؟

أبدا ..

فالوزارة المنشأة للتعليم، اهتمامها الأساسى هو مابعد السادسة، إلا فيما ندر، لتنفق مليارات الجنيهات.

أما ما قبل السادسة، فمعظمه لوزارة العجزة والأيتام والمعاشات.. وزارة الشئون الاجتماعية لتنفق النزر اليسير، وتتعامل مع دور الحضانة وكأنها مجرد (إيواء) للطفل، حتى تعود أمه للعمل، والعاملة بالحضانة هى مجرد (حارس) وليست (مربية) بمعنى الكلمة.

إذا أردنا أن نكون صادقين مع أنفسنا، وجب أن ندخل مرحلة الحضانة ورياض الأطفال نظام التعليم وتعتبر جزءا رئيسيا من السلم التعليمى ويخصص لها ما يناسبها من موازنة التعليم!

وأبناء الجمهرة الكبرى من المصريين، إذا كانت مساكنهم تضيق بهم، فإنهم لايجدون تعويضا فى ساحات شعبية أو فى نواد.

ومن المفارقات المبكية حقا أنك تجد — مثلا — فى منطقة مثل مصر الجديدة، الشوارع الواسعة والمساحات الخضراء العديدة، والحدائق، وفى نفس الوقت كثرة من النوادى، بينما نجد المناطق الشعبية التى تضم الكثرة الغالبة، ذات شوارع ضيقة وتختفى المساحات الخضراء والساحات الشعبية وتحرم كذلك من النوادى.

إنها نفس المقولة المؤسفة الشهيرة: من معه يعطى ويزاد.. ومن ليس معه يؤخذ منه وينقص.

فى الشارع يختفى الرقيب المتمثل فى الأب أو الأم أو المعلم، فيأتى الابن من السلوكيات ما لا يخضع لتوجيه وإرشاد، حتى

يصبح مألوفا أن تسمع العبارات الجارحة والشتائم والسب.

وفى الشارع تختفى مظاهر كثيرة مثل النظام، فإذا استثنينا بعض المناطق، مثل وسط المدينة وبعض الأماكن الأخرى الهامة، ستجد عسكرى المرور مختفيا، وإشارة المرور غير موجودة، أو موجودة لكن كثيرين يخرجون لسانهم لها.

وفى الشارع ينظر الإنسان إلى جانبيه حيث العمارات، فلا يجد تناسقا، فهذا مسكن من دور أو دورين قديم متهالك، وبجواره عمارة ضخمة، ناطحة سحاب حديثة وبجوارها مجموعة دكاكين.

فإذا جئت إلى الألوان، فحدث ولا حرج.. هذا البيت أصفر، وهذه العمارة لبنى.. وتلك المجموعة من الدكاكين مجمع ألوان صارخة!

القبح والتنافر سمتان تميت أى إحساس بالتذوق الجمالى.فى الشارع تسمع الأصوات العالية.. سيارة تمر.. كلاكسات متقطعة حادة.. ستريو لأغان زاعقة.. دكان لبيع الشرائط يضع سماعات ضخمة على الأبواب فيصل صوتها إلى مسافة كيلومتر، صاحب سيارة يكسل عن النزول ليسأل عن شخص بعمارة.. فيظل يناديه بكلاكس السيارة دون أن يراعى الوقت، حتى ولو كان بعد منتصف الليل، أو فى الفجر، أو فى عز الظهر.

هذه أمثلة محدودة، وهناك العشرات غيرها، عندما ينزل أطفالنا إلى الشارع ويتواجدون فيه ربما وقتا أطول مما يقضونه فى المنزل أو فى المدرسة، فإن أرواحهم وقلوبهم وعقولهم تتلوث بأقسى وأفظع مايمكن تصوره من ملوثات الأخلاق والتربية!!

إنه مدرسة حقا، لكنها مدرسة تهدم ماتقوم به مدرسة الوزارة ومدرسة الأسرة ومدرسة المسجد ومدرسة الكنيسة!

إنهم يعلموننا !!

باعتبارنا كبارا، فقد حصلنا من المعرفة ومن الخبرة قدرا يزيد بطبيعة الحال عما لدى الصغار، باعتبارهم لم يعمروا بعد عددا من السنين يكفيهم أو حتى يتيح لهم الفرصة للاستقلال و(الحكم الذاتى).

بهذا الاعتبار، فنحن نأخذ هذه القضية مسلمة لاتحتاج إلى نقاش، ألا وهى أننا لهم: معلمون، وهم لنا: تلاميذ!

حقا نحن لانستطيع إنكار ذلك، ولكن ماننكره أن نتصور أننا (دائما) «معلمون» وهم (دائما) «تلاميذ»، فهناك ظروف ومواقف تجعلنا نتبادل معهم المواقف فيمكن أن نصبح نحن التلاميذ وهم: المعلمون.

كيف ؟!

هذا هو مانريد أن نعرضه لك فيما يلى:

كانت الأسرة تقضى فترة عمل فى إحدى البلدان العربية. وفى أحد الأيام كان الأب يصطحب أسرته المكونة من زوجته وابنة وابن، فى سيارته، إلى هدف ما.. وفى أثناء الطريق، كان الأب يتناول قطعة صغيرة من الحلوى، وبعد أن فتحها ووضع القطعة فى فمه، أخذ غلافها وقذف به من نافذة السيارة.

وإذا بالابن يصيح بالأب متسائلا باستنكار: كيف تقذف بالورقة فى الشارع؟ ألم تنبهنا مرارا وتكرارا ألا نفعل ذلك حتى لا(نوسخ) الشارع؟

فوجىء الأب بملاحظة الابن حقا، حتى لقد سكت لحظات وكأنه لايعرف الرد، وبحث عن مخرج من هذا المأزق الذى وجد نفسه

فيه، ثم قال للابن: إن الشارع كما ترى متسخ بطبيعته، ولن تزيده هذه الورقة اتساخا فوق ماهو عليه!!

ولم يسكت الابن، ولكنه أردف متسائلا:

— لكنك يا بابا قلت لنا: إن على الإنسان أن يفعل (الصح)، فهل مافعلته هو (الصح)؟

واضطـر الأب تحت هـذه الضربـات أن يستسلم، ولم يجد غضاضة فى ذلك، فهذا أهون من الاستمرار فى المكابرة.

— نعم يـابنى، حقيقة أنـا نسيت وأخطأت، وهذه المرة حـدثت سهوا ولن تتكرر، وأنا سعيد بأنك تقول هذا.

إن الأب كثيرا ماسمع وقرأ وقال هـذه الحكمة التى تقول: (لاتنه عن خلق وتأتى مثلـه)، لكنـه لم يشعـر بمضمـونها الحقيقى كما شعر هذه المرة.

إنه لمن أخطر الأمور حقا أن يطالب أولاده بشىء لايفعله هو.

وكـان درسا أخـلاقيا حفـر فى أعماق الأب لم ينسه أبـدا، حتى اليوم رغم مرور سنوات طويلة عليه!

وهكذا إذا كنـا نذهب إلى أن أطفـالنا، أحيانـا مايعلمـوننا، فليس بالضرورة أن يـدور هذا التعليم حول (معارف) و(حقـائق)، ولكنه قـد يدور حـول (سلـوكيات) أو ينبهـوننـا إلى وجـوب سلوك مـا لمواجهة موقف.

وأعرف أبا كـان حريصا على أن يدرب أبنـاءه على المناقشة على عدم التسليـم دائما بكل مايكتب ومـا يقال والتفكير فيه مـن وجوه مختلفة.

كان الابن فى المدرسة الثـانوية، وفى يوم وجده أبـوه بعد ا لعودة من المدرسة حزينا كاسف البال.

لم يكن الأب متعـودا، عندمـا يـرى هذا، أن يسأل مبـاشرة عن

السبب، وإنما دعـا الابن إلى سماع أغنيـة يعـرف أن الابن يحب سماعهـا، فإذا بـالابن يجيب بأنـه (ملـوش نفس)!! هنـا بـدأ الأب يسأل: لماذا؟ رغم أن هذه الأغنية المحببة كان الابن يبحث عنها منذ فترة، وتصور الأب أنه سيفاجىء الابن بها.

هنا أجاب الابن بأنـه تلقى اليوم حصة فى التربية الـوطنية ومما ذكـره المعلم أن سيـاسة التعليم فى مصر استطـاعت أن تفعل كـذا وكـذا وكذا.. ثم يقـول الابن إنه شعـر أن بعض هذا الـذى يؤكـده المعلم لم يحدث.. مثـال ذلك (تشجيع التعليـم الفنى) و(احترام العمل اليـدوى) فذكر للمعلـم أنه هـو وكثيرون، عندما انتهـوا من التعليم الإعـدادى لم يفكروا أبـدا فى الالتحاق بمـدرسة فنيـة، وأنه سأل بقيـة التلاميـذ فى الفصل فوجـد نفس الشـىء، بل لقد واجـه المعلم نفسه سائلا إياه: هل رغبت فى إلحاق ابنك بمدرسة فنية؟

لكن المعلم ثار فى وجهـه متهما إياه بالتطـاول وتحريض زملائه على تكذيبه.

وبعد منـاقشة بين الأب والابن حـول هذا الموضـوع، وجد الأب ضرورة أن يطلب مقابلـة المعلم، وأثناء المقابلة، حـاول الأب أن ينبه المعلم إلى مـاكشف عنـه مـوقف الابن من وجـوب التفـرقـة بين (مبادىء) نسعى إلى تحقيقها وبين (إنجاز) تم بالفعل، فنحن كثيرا مـانخلط بين الأمـرين ونتحـدث (عما ينبغى أن يكـون) بـاعتبـاره (كائنا) ويـوقعنا هذا فى خطأ كبير، إذ سرعان مـايكتشف الأبناء أن الواقع مغاير لما نقول، فيفقدوا الثقة فى أحاديثنا، بل وتفقد المبادىء نفسها قيمتها ومضمونها.

أب آخـر جاءه طفلـه يشكو من مـدرس الرسـم، قـال الطفل: إن معلم الـرسم هدد بأن من تسقط نقطـة ألوان على الصحيفـة التى يرسم فيهـا سيقطع كراسته بأكملها!! ثم سكت الطفل قليـلا، وقال

لوالـده: (ولكن هل هذا معقـول)؟ فأجاب الـوالد: (معقـول طبعا). وكـان أول ماجـاء فى ذهن الوالـد أن يبدو أمـام ابنه متماشيـا مع سياسة المدرسـة وروحها، ونسى مامر بينه وبين ابنـه من ساعات الحرج فى مثل هذه المناسبات، ففاجأ الـولد أباه قائلا: (لا. هذا غير معقـول) فقال الـوالـد منـدهشا: (وكيف كـان ذلك؟) قـال الطفل: افرض أنى أريد أن أحول نقطـة اللون الأسود إلى طبق أسود أو إلى ولد زنجى، أو إلى نقطة فوقها محبرة مقلوبة..)

خرج الـوالد فى هـذه المرة عن سياستـه السابقـة عن غير قصد وقال: (والله إن هذا معقول)!!

وقال الـوالد بعد أيام بـالنظر فى كراسات ابنـه ولاحظ أن خطه جيـد فى معظم الصفحات وردىء فى البعض الآخـر، فقـال الوالـد: خطك هنا أحسن منه هناك، فما السبـب؟ وقال الولد: لسبب بسيط غاية البسـاطة، أنى اكتب خطا جيدا عنـدما اكتب خطا كبيرا، ولكن المدرس يصر على أن نكتب بخـط صغير، ومن هنـــا تنتج رداءة الخط.. فسكت الوالد سكوت الحيرة لأن هـذا من المبادىء الأولية فى التربيـة، ولم يكن من الممكن وضعـــه فى أحسن من هـذه الصـورة المحدودة الواضحة، فالتلميـذ الصغير هكذا: خطه ردىء إذا صغر، جيـد إذا كبر، ويصبح النمـو الطبيعى تـدرج فى الخط من الكبر إلى الصغـر، مع الجودة، ولا يجوز أن نسير ضـد الطبيعـة فى تعليم أطفالنا.

وحـادث آخر حـدث مع نفس الطفل، إنـه كلف أن يـرسم أرجل دجاجـة وأرجل أرنب من الكتاب المقرر فقام بما كلف بـه.. غير أنه علم يوما ما أن والدتـه اشترت بعض الدجاج، فطلب منها أن تعطيه أرجل (الفراخ) حتى ينظـر فيها ويفحص بيديه وعينيـه.. ولقد لبت الأم ماطلـب، بعد أن ألح والده على وجـوب تلبية مثل هـذا الطلب..

وكان فى اتجاه الولد نحو تعليم نفسه مايتفق مع اتجاهات التربية السليمة، وأحيانا مايقطع الأطفال مراحل شاسعة فى استعمال الأساليب التعليمية الصحيحة.

ومن أمثلة ذلك أن طفلا وجد على مكتب والده منظارا يدويا مكبرا (عدسة) فأخذه وصوبه نحو جلد والده فعبر عن دهشته تعبيرا حرا طليقا عندما رأى المسام كبيرة ورأى الشعر طويلا، وكان سروره بالغا لهذا الكشف، فأخذ المنظار واندفع به إلى غرفته، وكان به إناء به فول منبت، فأخذ واحدة وشقها وصب عليها منظاره ليرى من أين يخرج نبت الفول.

ولست فى حاجة إلى التدليل، بعد هذا المثال الأخير على القيمة التعليمية الكبرى والكامنة فى مئات الملاحظات التى تأتى على ألسنة الأطفال وتظهر فى أعمالهم الحرة.. وإذا أراد المربى أن يتعلم كيف يعلم الطفل، أو أن يحدد مايعلمه إياه، فليس أمامه خيرا من مراعاة الطفل والنظر إليه وملاحظة أعماله وأقواله، والبدء منها، فهى النقطة الأولى فى الطريق الصحيح، بل ومصدر الوحى يستلهم منه المربى جُل رسالته.

ومن المصادفات العجيبة حقا، أننى أثناء كتابة الجزء الحالى، أحببت أن أستريح بعض الوقت واشغل نفسى بعمل مغاير لما اعمل، فماكان أمامى إلا الجلوس أمام التلفزيون، فإذا بإحدى القنوات العربية تذيع مناقشة حول أحد الأفلام المصرية، مع الاستعانة بمشاهد منه تدور فكرته الأساسية حول محام كان سيىء الخلق، يستغل مهنته ومهارته فيها فى الحصول على الأموال من غير حق، وفى النصب والاحتيال، ثم إذا بابنه يتعرض لموقف إنسانى صعب يضطره إلى المرور ببعض المواقف دفاعا عن الابن، ثم إذا به يشهد داخل نفسه رغبة عارمة نحو التحول الكبير إلى

شخص آخر يدافع عن المبادىء النبيلة ويتحمل أهوالا فى سبيل ذلك، إلى الدرجة التى جعلت منه (بطلا) أمام الناس!

إن أطفالنا يمثلون البراءة والمستقبل والجمال والصدق والأمانة فى حالتهم الطبيعية، وقبل أن نلوثهم نحن بالأكاذيب والقسوة والقبح، ولو تعاملنا معهم كما خلقهم الله أطهارا أبرياء، فسوف يكونون مصدر تعلم أرقى بكثير مما يتصوره البعض.

السمكة .. أم الشبكة؟

هنـاك مثـل صينى شهير يـردده كثيرون يقــول: انك إذا رأيت فقيرا أو جوعـان، فبدلا من أن تعطيـه (سمكة) اعطـه (شبكة)، على أساس أنك لـو أعطيته السمكـة، فسوف يأكلهـا بطبيعة الحال، ثم يجىء وقت آخر يجوع فيه، فلايجد مايـأكله. أما إذا أعطيته شبكة، فســوف يتعلم الصيـد ويصبح فى يــده (أداة) يحصل بها لا على السمكة الواحـدة وانما على العديد من السمك، فيأكل منـه مايشاء، ويبيع مايشاء!!

نسوق هـذا التعبير عما نود أن نطرحـه هنا، وهـو أنه من المهم للغاية، ونحن نربى أطفالنا ألا نركـز على (المعلومات) بقدر مانركز على (كيفية) الحصول عليها و(التفكير) فيها، فـالمعلومات هنا أشبه بـالسمكة، أمـا الكيفيـة التى نحصل بها عليهـا ونفكر فيهـا، فهى الشبكة.

وهنـاك مثل عـامى يشير إلى نفس الغرض نقـول فيـه: (لاقينى ولاتغـدينى)، فإذا دعـاك شخص على (كبـاب) ووضح ان ذلك انما هو صـورة من صور النفـاق والمداهنة، أو تمهيـدا لطلب مصلحة، فضلا عما قـد تشعر بـه فى نظرات عينيـه من علامـات غير ودية، بينما شخص آخـر يتهلل فـرحــا إذا رآك ويستقبلك وعينـاه تكـاد تـرقصــان وتنطقان بكلمات تـرحيب تنم عن صــدق ومــودة وحب دون أن يدعـوك إلى (طعام)، فسـوف ترحب بـالسلوك الثـانى هذا وتنفر من الأول.

إن هذا أيضا تعبير عما نريد قوله هنـا، فالغداء هو (المعلومات) و(الملاقاة) هى الطريقة وهى الكيفية.

إن «التفكير» خاصية ينفرد بها الانسان عن سائر خلق الله، والفرق بين الانسان (الذكى) والانسان (الغبى) هو فرق فى التفكير.

وصحيح أنك لو قارنت بين مجتمعات متقدمة وأخرى متخلفة، فلن تتعب فى العثور على فروق، تتمثل فى أجهزة ومعدات وتنظيمات وأنشطة، ولكنك لو تعمقت المسألة فسوف تجد أن وراء هذا وذاك عقولا مفكرة.. هذه شعوب استثمرت عقول أبنائها فغذتها بالمعرفة وربتها على حسن التفكير وصحته، وتلك شعوب أهملت عقول أبنائها وعرقلت نموها بالخرافات والخزعبلات وصور القهر والنهى والمنع والطاعة العمياء وتحريم المناقشة والنقد.

ولكى تستطيع أن تدرب أبناءك على التفكير السليم يحسن أن نضع بين يديك بعض الحقائق عن طبيعة التفكير عند الأطفال:

فمنذ الميلاد، وحتى سن الثانية على وجه التقريب، لايستطيع الطفل أن يفكر وانما يستطيع القيام بأنشطة حسية حركية.

أما فى الفترة التالية، وهى من سن الثانية حتى السادسة تقريبا، فإنها تتميز بخلوها من العمليات المنطقية، فلايستطيع الطفل، مثلا، أن يدرك معنى احتفاظ الكمية بخصائصها إذا حدث فيها تغير فى شكلها أو وصفها أو فى درجة بعدها أو قربها. وحتى المفاهيم التى يدركها فى صورتها البدائية لايستطيع استخدامها بكفاءة فى هذه المرحلة، مثل مفهوم الفئة والعلاقة الفئوية التى تربط بين أعضاء الفئة المعينة، فهو فى منزلة وسط بين ادراك الشىء (كهذه المنضدة أو هذا الكرسى مثلا) وادراك علاقة كل منهما بالمناضد والكراسى الشبيهة (حامد الفقى: دراسات فى سيكلوجية النمو، دار القلم، الكويت، ١٩٨٣، ص٢٢٩ ـ ٢٣٤).

ومن خصائص التفكير فى هذه المرحلة، أنه تفكير متنقل أو

عابر، فهـو ينتقل، ولكن من الخاص إلى الخاص، ولكنه ليس تفكيرا استنبـاطيـا ينتقل من العـام إلى الخاص، ولااستقـرائيـا ينتقل من الخاص إلى العام، وهو تفكير يعتمد على المماثلة، أى أنه إذا كان (أ) يشبـه أو يماثل (ب) من وجه أو جـانب، فإنـه لابد أن يشبهـه من جميع الجوانب أو الوجوه.

أمـا الفترة التى تلى ذلك، وهى من سـن٧ ــ ١١ أو١٢ ، فمن خصائصها أن الطفـل يستطيع فيها القيام بالعمليـات الاستنباطية والاستدلاليـة تدريجيـا مادامت مـرتبطة بـالمحسوس مـن الأشياء والأحـداث، وينمـو فى هـذه المرحلـة مفهـوم الاحتفـاظ فى الأعـداد والأشكـال، علاوة على الكميـات، إن الطفل يـدرك أنـه أيـا ماكـان الترتيب أو الشكل الـذى تأخـذه الأعـداد التـاليـة (٢+٣)+٤، فإن المجموع يظل كما هو لايتغير ويتدرج نمـو هذا المفهوم لدى الطفل فى هذه المرحلة، فـالاحتفاظ بالكم قد يتم ادراكـه قبل ادراك مفهوم الاحتفاظ بالوزن، والوزن يتم ادراكه قبل مفهوم الاحتفاظ بالحجم والاحتفاظ بالعدد يسبق ادراك الاحتفاظ بالمساحة.. وهكذا.

ومن خصـائص هذه المرحلـة، فك عملية التمـركز أو مـركزيـة التفكير التى كـانت سائدة فى المرحلـة السابقـة، أى يستطيع الطفل ادراك الشىء من أكثر من بعد واحد، فـالكمية سواء أكانت عددا أم حجما، أم وزنـــا، أم غير ذلك، تبقى ثـــابتـــة لـــوتغيرت بعض خصـائصها، ولم يعـد ادراك الطفل يتمركـز حـول بعد واحـد، بل يتحرر من هذه المركزية فى التفكير.

ومن أهم خصـائص هـذه المرحلـــة، نمـو مفهـوم (التصنيف) ومايتصل بـه من عمليات السلسلـة، ويقصد بها تـدريج أو ترتيب الأشيـاء المتشابهة، تبعـا لبعـد معين كالحجـم مثلا، فقـد يستطيع الطفل العـد، ولكنـه لايستطيع تعيين رتبة المعـدود، فإذا طلب إليـه

ترتيب أو تدريج عشر قطـع من الحلوى، أو من المكعبات أو الازرار أو نحو ذلـك وتعيين القطعة الـرابعة أو الخامسة أو نحـوها، فـإنه يستطيع ذلك فى هذه المرحلة، أما قبلهـا، فلايستطيع. وهناك ترابط بين التصنيف والترتيـب، ويقتضى التصنيف القـــدرة على ادراك الخصائص المتشـابهة وتمييزها فى أفـراد الفئة المعينـة دون غيرها من الفئـات الأخرى، ثم تجريـد معنى كلى عام يتـدرج تحته أفـراد تلك الفئة.

وتتوقف قدرة الطفل واستطاعته القيام بعمليات التفكير المنطقى على نضـج ونمو العمليات المشار إليها وهى التصنيف والترتيب أو السلسلـة والعد، وتعتبر عمليـة العـد نتيجـة منطقية لنمـو عمليتى التصنيف والترتيب.

ولأن الحواس التى زودنـا الله بها هى المنـافـذ الأولى لـلإدراك، ومن ثم فإن مـانتلقاه، انما يشكل المادة الأوليـة للتفكير، كان مهما أن نـدرب صغارنـا على حسن استخـدامهـا (هدى قنـاوى: الطفل وتنشئته وحاجاته، الانجلو المصرية، ١٩٨٣، ص١٥٤ـ ١٥٩).

(أ) فبالنسبـة لحاسة البصر تطلب الأم أو المربيـة من الطفل أن يميز بين الأشكال والألوان والأحجام الخاصـة بالأشياء المختلفة ومواد صنعها، حتى يدرك خواصها، ويستطيع بذلك أن يميز بينها ويعـرف الفـروق بين الأشيـاء، ويكـون لكل شىء صـورة ذهنيـة مدركة يستطيع أن يستوعبها عندما يرى هذا الشىء فيما بعد.

(ب) بالنسبة لحاسة السمع، تستطيع الأم أن تجعله يميز بين الأصـوات المختلفة، فيكـون لكل صـوت معنى خاص بـه (ادراك) فيعرف صـوت اغلاق البـاب والشباك، ويميـز بين صوت البيـانو والأورج، ويميـز بين الصـوت الجميل والصـوت القبيح. يميـز بين صوت خـرير المياه وغيره من أصوات، يميـز بين الأفراد المختلفين،

وبين أصوات الحيوانات المختلفة بحيث يكـون صورة مرتبطة بكل شىء بعد ذلك.

(ج) وعن طـريق حـاسـة اللمس، يستطيع أن يكـون صـورة ذهنية لما يلمسـه عن أشياء، فيعـرف أن بعضها لـه ملمس ناعم أو خشن، ويفرق بين الأشياء المستديـرة أو المستطيلة، حتى بدون أن ينظر إليها. وتستطيع الأم أن تساعد الطفل فى تكوين صورة ذهنية لـلأشياء من خـلال اثـارة الطفل للتمييز بين الأشيـاء، كأن نصنع للطفل مثلا مجمـوعة من الحبـوب فى أكياس مغلقـة وتطلب منه أن يلمس كل كيس ويحاول أن يتعرف على مابداخلـه، فهذا فول، وهذا أرز، وهذه مكـرونة، وذاك لوبيـا.. الخ وهو يستطيع أن يسمى كل شىء بالكيس بـاسمه بعد ماتكـونت لديه صورة عقليـة تمكنه من ادراك مابداخل الكيس.

(د) وعن طـريق حـاسـة الشم، يستطيع الطفل أن يميـز المأكولات فيعـرفها من رائحتها دون أن يـراها، فهذه رائحـة كعكة وضعتها الأم فى الفـرن، وهذه رائحـة شواء على النـار.. الخ. ويميز الروائح الذكية من الروائح الكريهة، وحتى الروائح الذكية يستطيع التمييز بينهـا، فهذه رائحة فل، وتلـك رائحة ياسمين، وهـذه رائحة قـرنفل.. الخ. ويعرف أن هـذه رائحـة خل، وهـذه رائحة حـامض، وهـذه رائحة ثـوم أو بصل.. الخ، وذلك التمييـز للروائح المختلفـة واطلاق اسم لكل رائحـة انما لأن هذه الرائحة قـد يكون لها معنى عقلى مدرك يستطيع أن يتذكره عندما يشم الرائحة.

(هـ) وعن طريق حاسـة التذوق، يستطيع الطفل تمييز المالح من العذب من الحامض من حلـو المذاق.. الخ، فإذا مامضى الطفل على طـريق النمو فى المدرسـة الابتدائيـة والاعداديـة، كان لابـد من عمليات تدريب مختلفة ومستمرة على التفكير:

(و) هناك خرافات كثيرة قد يسمعها الطفل، يمكن أن يناقشها الأب أو المربى معه بطريقة مبسطة، بحيث يفقده الثقة بها ويكذبها ويشعر بلا منطقيتها ومجافاتها إلى العقل السليم.

— وطلب رأى الطفل فيما يسمع أو يقرأ أو يشاهد مسألة هامة، مهما بدا ذلك متعذرا فى أول الأمر، ثم مهما بدا الرأى هشا وساذجا، فاستمرار ذلك سيصل به إلى درجة أن يحدد له موقفا دائما من كل مايتعرض له من قراءات ومسموعات ومشاهدات مما يساعد على نمو حس النقد لديه ويحول عقله إلى (فلتر) ـ مصفاة ـ يقوم بترشيح وتنقية مايجيء إليه.

— وكتب المدرسة، من المفروض أن تنبه الجهات المسئولة المؤلفين إلى أن تكون هناك أجزاء يطلب فيها من الطالب أن يقوم بنفسه بالحصول على المعلومات المطلوبة، ذلك أن احتواء الكتاب على (كل) المعلومات المطلوبة، جاهزة، قد يصيب عقل الطفل بالسلبية والاتكالية.

— وطريقة المعلم فى التدريس لها دور هام هنا، فالطريقة التى تقوم على التلقين، بحيث يظهر المعلم بأنه وحده سلطان المعرفة وماعلى التلاميذ الا التلقى والسماع، يصيب العقل ببطء النمو ويعجزه عن التفكير النشط، فهو بحاجة إلى المناقشة والحوار، وهو بحاجة إلى أن يشعر التلاميذ بأن بإمكانهم المساهمة ببعض المعلومات التى يجهزونها سلفا.

— وهناك أسئلة الامتحانات التى ينبغى أن تبتعد عن ذلك النوع القائم على الحفظ والتسميع لتتجه إلى التعليل والمقارنة والاستنباط والربط وإبداء وجهة النظر والكشف عن السلبيات والايجابيات.. وهكذا.

اقرأ باسم ربك

أن تقرأ، معناها أن تعرف..

وأن تعرف، معناها، أن ينمو عقلك وينضج تفكيرك..

وأن ينمو عقلك وأن ينضج تفكيرك، معناها أن تصبح أكثر إنسانية..

من هنا نفهم لماذا استهل الله عز وجل آيات قرآنه الكريم بأن أمر كلا منا بأن يقرأ..

ومن هنا أيضا يصبح من أهم واجبات الآباء والأمهات أن ييسروا لأبنائهم سبل القراءة، ذلك أن القراءة لاتزال هى أهم الوسائل التى تنقل إلينا ثمرات العقل البشرى وأنقى المشاعر الانسانية التى عرفها عالم الصفحة المطبوعة.

والقراءة تسمو بخبرات الأطفال العادية وتجعل لها قيمة عالية، فالأطفال أينما كانوا يجربون ويختبرون كل مايحيط بهم، ويريدون أن يعرفوا الاستجابات المختلفة لتجاربهم، والقراءة تزيدهم فهما وتقديرا لمثل هذه التجارب، كما انها تمدهم بأفضل صور للتجارب الانسانية فتوسع دائرة خبرتهم، وتعمق فهمهم للناس، ولضروب فى الحياة تغاير حياتهم، ولإدراك تنوع الخبرات الانسانية، واحترام طرق معيشة الآخرين، وطرائق تفكيرهم ولطرائقهم الخاصة بهم. كما أن القراءة تساعد على تحقيق التفاهم المتبادل بشكل ميسر (الحلقة الدراسية عن مهرجان القراءة للجميع، القاهرة ٢٥ــ٢٧نوفمبر ١٩٩١، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ص ١٧٧).

والقراءة تساعد الأطفال على تهذيب مقاييس التذوق لديهم،

فمن أعظم قيم القـراءة الواسعـة للكتب، انها تسـاعد الأطفـال على صدق الاستجـابة لقصـة تمتاز بجمال السرد، ممـا يعطى القارىء فـرصـا كثيرة لـلاختيـار والمقـارنـة، هـذا إذا اعتبرنـا أن ميـولنـا ومقاييسنا فى التقدير، وأذواقنا وليدة تجاربنا.

والقراءة تساعـد الفرد على التوافق الشخصى والاجتماعى، فكل جيل من الأجيـال تـواجهـه مشكلات رئيسيـة فى عمليـة التـوافق، والقـراءة تساعـد الأطفـال على اكتساب الفهم والاتجاهـات وأنماط السلوك المرغـوب فيها، والمشكلات التى يواجههـا الأطفال تتمثل فى الحاجـة إلى الصحة الجسميـة، وعـلاقاتهم مـع الأطفال الآخـرين، والشعـور بالـذات، وكيفية ارضـاء الكبـار، النجاح الـدراسى، وفى اكتساب فهم أساسى واتجاهات ضرورية لهذه المشكلات.

وفيما يلى بعض المقترحـات التى يمكـن بـواسطتهـا تشجيع الأطفال على القراءة:

— لاترغم الطفل على القـراءة، فالمفـروض أنهم يستمتعون بها من تلقاء أنفسـهم.

— توفير الحوافـز لهم ليقرأوا مايفضلـونه، ويمكن تحقيق ذلك بجعلهم يكتبون: الكتـب المفضلة لدى هى.. ولاأحـب أن أقرأ.. وأود أن أقرأ.. للكاتب...

— لابد من وجود سلسلة كافية من الكتب للاعارة.

— يجب عـرض الكتب جيدا، وأن يكـون مظهرهـا جذابـا، وأن نشجع الأطفال على تقديم آرائهم الشخصية حول هذا الموضوع.

— أرفع من شأن الكتب الحديثة والأقل انتشارا.

— عود أطفالك على تحمل المسئولية ودعهم يشاركون فى تحمل المسئوليات باختيار الكتب الحديثة وطلبها إذا أمكن.

— شجع الأطفـال على الانصات للقصص المسجلـة على أشرطة

وأن يمثلوا أدوار الشخصيات فى النص كأحد أنشطة القراءة.

— استفد من الاذاعة والتليفـزيون، واستعمل الأدوات السمعية والبصرية الأخرى.

— حاول أن تستجيب لردود فعل الأطفال.

— كن قـدوة حسنـة لهم بأن تقرأ بـانتظـام (المرجع السـابق، ص١٤١).

ولا أهميـة لكثـرة مـاينشر مـن كتب الأطفـال، مـا لم تصل إلى أيديهم .

وتواجـه الأطفال والمعلمين اليـوم مسألة من أهم المسـائل هى: كيف يجمعون بين عالم الأطفال وعالم الكتب، فالكتب تكلف نقودا، ولايستطيع شراء الكثير منهـا إلا عـــدد قليل منهم. وكثير من الأسر تعيش بعيـدا عن مكتبات بيع الكتب، أو بعيـدا عن المكتبـة العامـة، فـلاتستطيع إفـادة أطفـالها ، لا عن طـــريق الشراء، ولاعن طـريق الاعارة.

هـذا فى حين أن أهم عـامل فى تكوين الاهتمام بـالكتب، وتنميـة عادة القـراءة، هو سهـولة الـوصول إلى الكتب. والطفـل الذى يجد صعوبة فى الحصول عليهـا، لن يقرأ إلا القليل، وبذلك تبقى ميادين خبرته بالقراءة واهتمامه بها محدودة.

أما الطفل الذى يكون له اتصال دائم بالكتب القيمة، فقد تهيأت لـه الفرصـة فى القـراءة باعتبـارهـا وسيلة مـن أهم وسائل النمـو واكتساب المعرفة، والترويح عن النفس.

ومتى أصبحت القراءة عادة، فإن الألفة مع الكتب تؤدى إلى ذلك النمط من المشاركة الـذى قال عنه (هنرى ميلر) انـه «عندما ينتقى الانسان كتابا يأمل أن يجد فيه صديقا يدخل قلبه ويتجاوب معه».

اننـا عنـدمـا نقــرأ نمـر بكثير من الخبرات نتهيب أن نخبرهـا

بأنفسنا، هـذه القراءات تجعلنا نحلق فى عـالم هو مـزيج من الفكر والأحلام، فتصبح حياتنا أكثر ثـراء وبهجة، وقد نتوصل من خلال القـراءات إلى أسلـوب فى الحيـاة يجعلنا أكثـر قـدرة على مـواجهـة المشكلات التى تعترضنا.

وتنمية عادة القراءة، لابـد أن تبدأ فى البيت، منذ السنوات الأولى من حياة الطفل.

ومن الـوسـائل الهامـة التى تلجأ إليهـا الأسرة لتنميـة عـلاقـة أطفـالها بـالكتب، أن تنشىء لهم مكتبـة خاصـة، يحفظـون فيهـا كتبهم، فتشجع فيهم الفخـر بـامتـلاك الكتب، كما تعـودهم كيف يحافظون على الكتاب، وكيـف يعاملونه باحترام.إن مكتبـة الناشىء فى البيت قد تكـون صغيرة، وقد تكون عبارة عن رف واحـد، لكنها ملك له، تساهم فى تكوين كثير من اتجاهاته نحو الكتاب.

فإذا انتقلنـا إلى المدرسـة الابتـدائيـة، فـإن كثيرا من الأطفـال الملتحقين بها لن يجدوا لهم موردا غير المدرسة يحصلون منها على الكتب بـانتظـام، لهذا ينبغى أن يكـون لكل مـدرسـة، مهما كـان حجمها، مكتبـة خاصـة، أو مجموعـة من الكتب تستخـدم فى غرف الدراسة (المرجع السابق ص٢٣٠).

وهناك سؤال يواجه الآباء هـو: هل تنمية الميول إلى القراءة تبدأ منـذ دخول الطفـل المدرسة وتعلم القـراءة؟ أم أنها تبـدأ قبل ذلك؟ (حسن شحاتـه: قراءات الأطفـال، الدار المصرية اللبنـانية، ١٩٨٩، ص٢٢).

الحق اننا يمكن أن ننمى الميـول القرائيـة لدى الطفل منذ عـامه الأول، وذلك عن طريق:

— تـرديـد بعض الأغـانى من الأم أمـام الطفـل، مع الايقـاع المصـاحب لكلمات الأغنيـة حيث يظهـر تأثير هذا الغنـاء بصـورة

فردية فى شكل ابتهاج الطفل وضحكه وسعادته، وفى بعض الأحيان باغرائه بالنوم.

— عرض بعض الكتب المصنوعة من القماش والتى بها صور ملونة بألوان زاهية مبهجة، والرسوم الكاريكاتورية ذات اللفظة الواحدة والتى لاتؤثر على الطفل، فهى لاتتفاعل مع لعاب الطفل عندما يتحسسها عن طريق فمه.

— وضع الصور والكتب المصورة التى تحوى صورا مطبوعة زاهية عن الطيور والحيوانات التى فى بيئة الطفل، وكذلك لبعض أدوات المنزل المألوفة، ويفضل أن تقرأ الأم قصة بسيطة عن هذه الصور أمام الطفل وتحكيها له.

— قراءة بعض القصص المصورة مع الأطفال وأمامهم مع تمثيل المواقف بالاشارة بالوجه واليدين وتنغيم الصوت للتعبير عن الموقف، مع تجنب الحكايات غير السارة، أو التى بها عنف، والتى لاتتضمن قيما تربوية مرغوبة، مع ضرورة التركيز على القصص الخيالية. كما أن الأطفال يميلون إلى قصص الحيوانات والطيور والخيال العلمى والفكاهة، ويفضل ان يكون أبطال هذه الحكايات من الأطفال والبنات، وجعل الجماد والنبات والحيوانات تتكلم وتنطق وتتحرك، وتمشى وتطير، أى اضفاء الحياة على كل الأشياء.

فإذا ماجئنا لنقوم بعملية فحص لواقع قراءة الأطفال فى مجتمعنا فماذا نجد؟

منذ أن تبدأ قدرة الطفل على التمكن من القراءة، تنحصر خبرته فيها عادة فيما يقرأ عليه من كتب دراسية، لاتكون — غالبا - وسيطا حسنا لتكوين اتجاهات ايجابية نحو القراءة بحكم ماتتسم به من الزامية، فضلا عن جفاف كثير من المعلومات التى تقدسها

وارتباطها بالامتحانات وسوء الوسائل والطرائق التى تستخدمها فى الغرض.

ومن هنا تشكل القراءة الحرة وسيطا خطيرا للطفل للتعرف على جوانب متعددة، ان كانت خيرا، تشكل عقله فى طريق ايجابى، وان كانت متدنية، تدنى معها تفكيره، لما تتميز به من طرق وعرض جذابة وعدم ارتباطها بالامتحانات، وتناولها من الموضوعات ماهو سهل وممتع.

ولأن الطفل يكون فى مرحلة التعرف على العالم وتشتد لديه نزعة حب الاستطلاع، ويلهبه الشوق إلى المعرفة، يسرع إلى منفذ القراءة الحرة.

لكن سوق الكتب عندنا تحكمه متغيرات يتمحور معظمها فى الرغبة الجامحة للربح السريع والكبير أيا كانت الوسيلة. أما (التثقيف) وأما (التعليم)، فتأتى مرتبتهما فى المؤخرة وعلى استحياء شديد، وبصورة من صور اضفاء الشرعية من الناحية الشكلية لاأكثر ولاأقل.

ولعل تأملا سريعا فى عدد من الكتب المتداولة يكشف لنا عن هذا:

— إن بعضها يدور حول مجموعة من المواد المسلية التى تقوم بوظيفة لعب الطاولة والكوتشينه، إلا فيما ندر، مما قد تحمله من تمرينات يمكن أن تقوم بدور فى تنمية الذكاء، لكن عيب هذه النوعية أنها لاتستغل هذه الوسيلة من خلال معلومات تضيف جديدا إلى النمو المعرفى أو تدرب الطفل على مواجهة مشكلات واقعية مما تحفل بها حياته.

— وبعض هذه الكتب يوحى بأنه يدور فى فلك (الخيال العلمى)، لكن تأملا متعمقا فى بعض العينات الرائجة يوقفنا على

أنها أقرب إلى أن تكون صورة أخرى من صور شطحات بعض قصص ألف ليلة وليلة، قد استبدلت بمسميات عصرية. انها تتجه كثيرا إلى (الشطح) و(السرحان)، وهى تترك انطباعا لدى الطفل بأن العالِم هو (ساحر)، وأن العلم هو مصباح علاء الدين، وانه قادر على أن يحطم الحواجز ويحقق الخوارق، ويقول للشىء كن فيكون.

إننا نسعى إلى تنمية الاتجاه العلمى وتحبيب الأطفال فى العمل العلمى وزرع الثقة فى العلم وإمكانته، لكن هناك حدودا منهجية وإمكانيات فعلية، لابد من الالتزام بها حتى لايتحول مايسمى بالخيال العلمى إلى تخبط خيالى باسم العلم.

— وهناك بعض آخر من هذه الكتب يدور حول علاقات عاطفية، وهو مالانستطيع شجبه، فالجانب الوجدانى فى حياة الانسان طاقة نووية لازمة وأساسية فى تحريك الانسان ومده بدرجة من الحرارة اللازمة للتفكير والنشاط، لكن السؤال هنا: فى أى مرحلة يتم تقديم هذه الكتابات؟ وبأى أسلوب؟ صحيح أن الحب ليس له سن محددة، ولكن (موضوع الحب) يتوافق مع تغير مراحل العمر، والنوع الذى يقدم، من الأفضل أن يتجه إلى مابعد البلوغ.

وهنا تبرز المسألة الأخرى، وهى: بأى أسلوب؟ ففى فترة المراهقة تكون الطاقة الجنسية فى مرحلة الانطلاق، وتتسم بالشدة والتوتر، والعواطف تكون مشبوبة وملتهبة، فى الوقت الذى يكون فيه النضج العقلى غير مكتمل بحيث يشكل موجها وضابطا.

وعلى هذا فإن أساليب الاثارة ودغدغة العواطف، كما يحدث كثيرا من هذا النوع من الكتابات يمكن أن يلعب دورا مخربا فى الانحراف بهذه الطاقة العظيمة التى يودعها الله فى الانسان. وإذا كنا قد شبهناها بالطاقة النووية، فانها ممكن بالفعل أن تستغل فى

الأغراض السلميـة فتقفز بالانســان إلى أرقى ماتصل إليه أحــلامه من التطوير، ويمكن أن تستغل فى الأغراض العسكرية فتدمر.

وفى معظم ماينشر نلاحظ أمرين خطيرين:

— إن تلك الكتـابـات توثق العـلاقـات بين عقل الطفل العـربى والثقـافـة الغـربيـة، لافى مصـــادرهـا العمليـة التثقيفيـة، وانما فى مظاهرها السطحية.

— وهو محو العلاقات بين عقل الطفل وينابيع الثقافة العربية، وفى ذلك خطـر مـا بعـــده خطـر، إذ أن معنـاه أن يترك عقل الطفل فـريسـة لمظاهـر السـوء فى الثقـافة الغـربيـة ويجعل من الغـرب النموذج الأوحد ويمهد الطريق إلى التبعية الثقافية.

كذلك فإن انقطاع العقل عن ينابيع الثقافة الأصلية يذيب الذاتية والخصوصية، ويميع الهوية!!

بالله نستعين !

وأنا أجهز المراجع والمصادر التى يمكن أن استعين بها لإعداد هذا العمل، لفت نظرى أمر عجيب حقا، فعلى كثرة الكتب التى ألفت عن نمو الأطفال لدينا، لم أجد تناولا فى أى منها لنمو الجانب الدينى، باستثناء دراسة علمية جادة قديمة كتبها د. عبدالمنعم المليجى، ويبدو — والله أعلم — أن أحد الأسباب التى تقف وراء ذلك هو أن هذا الجانب ربما يكون عصيا على أساليب البحث العلمى التجريبى، وإن كان هذا السبب يصعب أن يصمد طويلا أمام المناقشة، مما قد يخرجنا عما نحن بسبيله.

إننا لا نبالغ إذا قلنا إن بث الروح الدينى فى الأطفال منذ سنواتهم الأولى، إذا قام على أسس وعى مستنير وتفكير سليم وفهم رشيد، فإنه سيكون القوة المركزية الجاذبة لكل ماهو إيجابى فى تكوين الشخصية وطرد كل ماهو سلبى.

ونحن إذ نشدد على (الوعى المستنير) و(التفكير السليم) و(الفهم الرشيد) لأن غياب هذه السمات عن الروح الدينى يمكن أن يسلبه ماهو إيجابى ويلحق به الكثير مما هو سلبى.

يسمع الطفل، أى طفل، فى أى بيئة عن الله، ربنا، الذى يحرم ويبيح: فقد يسأل ابن سن الأربع السنوات: أين هو الله؟ والإجابة يجب أن تكون إجمالية، ولا تدخل الأم مع طفلها فى أية تفصيلات، يكفى أن تقول له:

« ربنا فى السماء بعيد.. فوق، وعشان هو أكبر من أى واحد فينا وأعلى منه.. أعلى من أى مبنى على الأرض.. أعلى من البرج،

وكمان أعلى من القمـــر.. عشـــان كده يقـدر يشـوف كل النـاس فى وقت واحد».

وإذا استرسل الطفل فى الســـؤال، يمكننـا أن نضرب لـــه مثـالا بإنسان يصعد إلى سطح عمارة.. فإنـه يستطيع من فوقها أن يرى كل النـاس فى الشارع، وتقول الأم لطفلهـا : إن الله نظره أقـوى من نظر كل الناس.. بدليل أن الطفل، وهو فى مصر الجديدة.. لايستطيع أن يرى أهرامات الجيزة، مثلا، ولكن الله يستطيع أن يراها.

ولكن عندمـا يصل إلى سن سبع سنوات، فإن الإجـابة يجب أن تتخذ شكلا آخر، فتقول الأم:

« ربنا فوق فى السماء، ولكنه موجود فى كل مكان.. وعشان ربنا أقوى وأكبر من كـل إنسان، فهو يستطيع أن يـرى الجميع فى وقت واحد، ورجال القضاء بيشـوفوا الأرض كلها وهم فوق فى السماء.. وربنا أكبر منهم كتير، فهو يستطيع أن يـرى أكثر منهم ».. (ملاك جـرجس: مشـــاكل أطـفالنا النفســـية ، مؤسســة روزاليوســف ، ص ٢٠).

ولا يجب إحاطة (الدين) بجو من التخويف، فنغرق الطفل فى كم كبير من النـواهى، قائلين: هـذا حرام.. وهـذا حرام.. وهـذا حرام.. ومن يفعلـه ســوف يـذهب إلى النـار التى أعدهـا الله ليعـذب فيهـا العصاة المذنبين عذابا لامثيل له، وأن الشيـاطين حولنا فى كل مكان، وأن الله هو القوى الجبار.

إن أسلـوب (الترهيب) بهذه الصـــورة غير مستحب، وبـدلا من ذلك نستخـــدم أسلـوب (الترغيب)، فمنطقـــة الحلال هى الأوسع، والأكثر رحـابة، أمـا منطقة الحرام فهـى استثناء، وإذا كـان هناك شياطين، فهناك أيضا ملائكـة يحرسـون ويرعون.. وإن الله بالفعل

هو القـوى الجبار، لكنه كذلك هـو الرحمن الرحيم، وهـو الرؤوف وهو الخالق وهو الغفار وهو المنعم.. وهكذا.

ويمكن أن نقرب لأطفـالنا مسألة الجنـة والنار بـالقول بأن كل واحـد يعمل عملا جيـدا نعطيـه مكـافأة، ومن يعمل سيئـا نعاقبـه بحرمانه من الحلوى، أو مـن النزهة، أو بغير هذا وذاك من وسائل العقاب المشروعة، وأن وسائل العقـاب والثواب هذه كل منها يتعلق بعمل بعينـه، بمـوقف خـاص، لكن لابـد أن يكون هنـاك حســاب (إجمالى) عن مسيرة حياة الإنســان كلها، فـالجنة للـذين ساروا فى جملـة حيــاتهم مسيرة تـرضــى الله وتجلب الخير لنفس الشخص وللآخرين، أما النار فهى لهؤلاء الـذين سرقوا ونهبوا وقتلوا وسبوا وفعلوا من الأفعال مافيه إيذاء للناس وإيذاء للشخص نفسه.

ونحن إذا عرفنا أن نهايتنا سوف تكون إمـا بالجنة وإما بالنار، فإن ذلك يكون دافعا قويا لتجنب الشر والإقبال على الخير. وإذا لم تكن هنـاك جنـة ولا نـار، فلـن يخاف القـاتل والسـارق والنهـاب والشتام وغيرهم من فعلة الشر، فيستمروا فى الشر بل يزيدون.

والطفل عـادة لاتشغل فكـره قضيـة (وجود الله) إلا فى مـرحلـة متقدمـة، حيث يكون على درجة مـن النضج العقلى تمكنه من الفهم والاقتناع، فإذا سأل فى فلايجوز أن ننهـاه، وإنما يمكن أن نقول له بالإشارة إلى بعض الأشياء القائمة، إن هذا التليفزيون له صانع هو العـالم الذى اخترعـه والمهنـدس والعمال الـذين صنعوا وجمعـوا أجزاءه فى المصنع، وهذا الكرسى صنعه نجار..

وهكذا بـالنسبة لكل الأشياء المحيطـة بنا، وكل المخلوقـات، لابد لها من خالق، وهذا الخالق لابـد أن يكون واحدا، إذ لو كـانوا أكثر من واحد لحدث صراع وعراك، هذا له خلقه ،وذاك له خلقه، فيحدث النزاع بينهما.

ويمكن أن نشير إلى اعتماد كثير من المخلوقات على مخلوقات أخرى مبرزين فكرة مابينها من تكامل يؤكد وحدانية الخالق.

كذلك يمكن أن نشير إلى مابين الناس من تفاوت فى الجمال والقبح، فى الذكاء والغباء، فى الفقر والغنى، فى القوة والضعف، وإن الإنسان لو كان يخلق نفسه، لخلق كل منا نفسه أذكى وأجمل وأقوى وأغنى مايمكن، ولكن هذا مستحيل.

وربط الطفل بالمسجد أو بالكنيسة اتجاه مرغوب وأساسى، حتى فى هذه السنوات المبكرة التى قد لايفهم فيها لماذا نذهب إلى المسجد أو إلى الكنيسة، إذ شيئا فشيئا سيصبح عادة له.

وبطبيعة الحال فليس الهدف هو مجرد الذهاب، بل أداء الصلاة والمواظبة عليها، فهى تجعل الإنسان على صلة بربه كل يوم، وعندما يجد الإنسان نفسه بين يدى الله سيكون ذلك رادعا له عن فعل الشر ومحرضا على فعل الخير.

وقراءة القرآن أو الإنجيل خطوة أساسية، وليس المراد هو الحفظ، بل الهدف الأساسى هو القراءة حتى ولو لم يفهم فى بداية الأمر ما يقرأ، فالتعويد والتدريب أساسيان، ففضلا عما تؤدى إليه قراءة القرآن - مثلا - من ارتباط بالله، فهى مع تقدم النضج العقلى، وتوقفه على كثير من مبادىء ومفاهيم ضرورية، وسلوكيات مرغوبة وأخرى منهى عنها، من مصدرها الأصلى قبل التعرض فيما بعد لتأويلات وتفسيرات أخرى قد تكون منحرفة ومتطرفة.

وقراءة القرآن كذلك تقوِّم اللسان وتجعل من لغة الطفل لغة سليمة، فلا تصبح لغة الكتب المقررة لغزا بالنسبة إليه وإنما سهلة يسيرة.

ومن المهم - فى بث الروح الدينى - التركيز على أنها تتطلب حب الناس والسعى إلى خير الجميع.. إنها تنبذ العنف وتنشد السلام

بين أبنـاء المجتمع ، وإذا كـان هناك أشرار بين انـاس ومخطئـون، فليست مهمتنا نحن أن نعـاقبهم، فهناك (حكـومة) هـذه وظيفتها، وهناك قبل ذلك (الله)، فهو الأعلم بما حـدث ولن يفلت من مراقبته أحد يكون قد تمكن من الإفلات من رقابة الحكومة وعقابها.

إن على كل منا أن ينصح ويشير إلى طريق الخير مع كل الناس، لكن بالنسبة لمن يرتكب شرا، فمسئولية محاسبته تقع على المسئول عنـه، إن حـدث الفعل السيىء فى المنـزل، فـالأب أو الأم يتـوليـان العقـاب، وإن كان الفعل السيىء فى المدرسـة، فمـدير المدرسـة أو ناظرهـا أو معلموها يتولون ذلك، وإن كان هـذا الفعل جرما كبيرا، فالحكومة هى التى تتولاه.

كذلك من الضرورى لفت الانتباه إلى أن حب الدين والتحمس له مطلوب ومـرغوب، لكن هـذا لاينبغى أن يؤدى إلى بغض أبنـاء دين آخر وكراهيتهم، فالله سبحانه سيحاسب الجميع.

ومن الأمـور الهامة فى المجـال الـدينى.. التذكير بحقيقـة أن الله (غنى عن العـالمين)، لـو اجتمع النـاس كلهـم على معصيتـه، فلن ينقص ذلك من ملكه شيئا، ولو اجتمع الجميع على طاعته فلن يزيد ذلك من ملكـه شيئـا، ومن ثم فهـو فى كل مـايأمرنـا بـه.. وفى كل ماينهانا عنه يريد خيرنا وسعادتنا، وبالتالى فإن فى كل عمل صالح نفعلـه: مـذاكـرة: نجـاح، إتقـان عمل، تنظيف الجسـم والمنـزل والشـارع، زراعـة النبـاتات المختلفـة والـزهـور المتعـددة، اختراع الأجهزة التى تسهل لنا الحيـاة وتحل لنا المشكلات، اختراع الأدوية التى تخفف الأمراض.. كل خطـوة فى هذا السبيل إنما هى خطوة فى الطريق إلى الله.

وهناك كم ضخم من السلـوكيات الأخلاقيـة التى يمكن الإرشاد إليها والتنبيه عليها:

فتبسم الإنسان فى وجه أخيه صدقة.. وتعذيب الحيوان يؤدى إلى النار.. وتمهيد الطريق عمل خير.. ومخاصمة الأصدقاء عمل مكروه ومنبوذ، والصلح خير.. وهكذا.

وفى كل هذا أو ذاك لابد أن نتذكر تلك الحقيقة التربوية الاجتماعية: أن نطالب نحن الكبار أنفسنا بكل هذا وغيره قبل أن نطالب الصغار.

لقد قلنا ماقلناه ونحن نعى جيدا أن هذا لايتأتى بمجرد الوعظ والإرشاد.. وإنما بأن يراه أبناؤنا سلوكا حقيقيا يعيشه الآباء والأمهات.

الشياطين الصغار !!

هو وصف درجنا على إطلاقه على بعض أطفالنا ممن يتميزون (بالشقاوة) وخاصة عند تجاوز هذه الشقاوة حدود المعقول لتصل إلى حد (العدوانية) و(التخريب) و(التدمير).

إن العدوانية لها بذور تقوم على أسس إذا فهمناها فهما علميا سليما، فسوف نعرف السر فيما نراه من اعتداءات الكبار بعضهم على بعض، فهناك اعتداء سياسى على سياسى آخر فى معركة انتخابية، وهناك اعتداء أديب على آخر بالنقد المر والهجاء الحاد، واعتداء العامل على صاحب المصنع، واعتداء دولة على دولة، وطائفة على طائفة، واعتداء حيوان على حيوان آخر، واعتداء الطفل على أمه بعضها فى ثديها، واعتداء الولد على أخيه المولود الذى لم يجاوز عمره بضعة أيام.

والاعتداء يكاد يكون ظاهرة عامة عند الإنسان والحيوان، ويظهر بأشكال مختلفة، منها العض والضرب والرفس والطعن والقتل والهجاء والسب والتشهير وشن الحروب وحرب الأعصاب وغير ذلك.

وليس من الضرورى أن يتجه العدوان دائما إلى إنسان أو حيوان، فقد يتجه إلى موضوع علمى كنظرية سياسية أو اقتصادية أو نفسية، وما يتفرع عنها وما يمت إليها بصلة قريبة أو بعيدة.. وقد يتجه إلى مسألة هندسية يشعر الإنسان أنها تتحداه، وقد يتجه إلى الطبيعة أو إلى الأشياء فنمزقها أو نتلفها، وغير ذلك.

معنى هذا أن العدوان حدث قوى خلفه قوة كبيرة، فالقوة موجودة لدينا بصورة ما ويمكننا أن نسميها ماشئنا، فلن نختلف

على هذا، هـذه القوة يمكن أن تتجه للخير والتعمير والبنـاء، فنقول: إن هذا كله لصالح الفرد والمجتمع الصغير والمجتمع الكبير.

فالقـوة البشرية الموجـودة لدى الفـرد ولدى الجماعـة يمكن أن توجه تـوجيها مفيدا نافعا يؤدى إلى البنـاء، وإلى النمو وإلى التقدم، ويمكن أن توجه اتجاها آخر.

●●●

خرجت (نور) و(أكرم) للنزهـة مع أمهما، وكانت نور فى الرابعة من عمـرها راكبـة دراجة، ومـا إن حان دور أخيهـا أكرم،للـركوب حتى تفوهت بـالعبارة التالية: (يارب تقع وتنكسر رقبتـك)!! معربة عن شعـورها إزاء تخليها عن الـدراجة وذلك بألفـاظ لاتحتمل أى شك.

فقالت الأم: (كده يانـور أنتى مش ممكن تحبى أخوكى يجرا له كـده؟) ولم تكد تنتهى من عبـارتها حتى سقط أكـرم من الدراجـة وراح يبكى، فسـارت (نور) إليـه، بعد أن كـانت حانقـة عليه منـذ لحظـة، تهدىء من روعه فى قلق حقيقى. وهنـا قالت الأم لنفسهـا: (ماأعظم حب نور لأخيها) ولم يكن لديها فى هذه المرة أدنى شك فى حقيقة مشاعر ابنتها تجاه أخيها.

إن من العجيب حقـا أن أغلب الكبـار لاتختلف أحـوالهم فى مثل هذه المواقف عن حال أم نـور، ويبدو أنه من اليسير أن يعتقد المرء أن الأطفـال يضمرون لغيرهم غير الحب والحنـان، فإذا بـدر منهم سـلوك عـاطفى، سلمنـا بأن أفعـالهم إنما تترجم عن حقيقـة شعورهم.

ولكن دع طفلا مـايصبح مغضبا، وينهال على الأشياء قـذفا، أو دعـه يتفوه بعبـارات التهديـد والـوعيد، أو دعـه يعرب عن غيظـه، حينئـذ يسرع الكبـار إلى التماس المعـاذيـر فيعلقـون على مسلكـه بقولهم: (إنه لايدرى مايقول) أو (إنـه لايعنى مايقول) فالواقع أننا

لانضيق ذرعا بالفكرة القائلة : إن الأطفال قد يشعرون بالعدوان، ونقصد بالعدوان، كل المشاعر والدوافع التى تتضمن عنصر التدمير وسوء النية حيال الآخرين.

هذه المشاعر يمكن أن يفصح الأطفال عنها فى شتى الصور، فطفل الرابعة الذى لايتوانى عن هدم الأشكال التى يبنيها أطفال آخرون من الرمل على الشاطىء، وطفل التاسعة الذى لايفتأ يزهو على طفل أصغر سنا يتفوق عليه فى القوة، أو الصغير الهادىء الذى يلزم ركنا قصيا حالما يشعر بأشنع صنوف التعذيب ينزلها بآخرين .. هؤلاء إذ يفعلون ذلك إنما يعربون عن مشاعر عدوانية لاشك فى وجودها.. (س. اسكالونا: عدوان الأطفال، ترجمة: عبدالمنعم المليجى، النهضة المصرية، ص ١٢).

ونحن نعلم أن المشاعر العدوانية تسلم إلى العنف والعداء، وذلك سلوك لايقره المجتمع إلا فى ظروف خاصة، كالتنافس الرياضى، والدفاع عن النفس، والحرب، بل إننا لانعدم فى هذه الظروف قواعد صارمة تحد من غلواء الأفعال الاعتدائية، وعلى العموم فإن السلوك العدوانى يدعو إلى الاستياء، فضلا عن كونه أمرا يناهض جميع الناس.

ومادمنا نعيش فى عالم متمدين، فإنه يتحتم علينا أن نتعلم التحكم فى نزعاتنا العدوانية ، كما أنه ليس بوسعنا دائما أن نفصح صراحة عن مشاعرنا العدوانية، وليس بوسعنا من باب أولى أن نسلك مسلكا عدوانيا.. ولكن نفوسنا تضمر فى أغلب الأوقات مشاعر عداء وعنف.. ومن الوسائل التى نتذرع بها كى نمنع هذه المشاعر من أن تستحيل إلى سلوك عدوانى، أن نقنع أنفسنا أننا منها أبرياء، أى أننا نأبى أن نقر بمشاعرنا العدائية، ونسلم بوجودها فى نفوسنا، فلا عجب إذن، والأمر كذلك، أن كنا نأبى أيضا أن نقر بوجود هذه المشاعر فى نفوس أطفالنا.

إن نشـاط الطفل ـ على قلـة تناسقـه وشـدة غموضـه فى بعض الأحايين — لا يخلـو من غرض معين، ذلك أن وراءه خطـة تحركه وغرضـا يرمى إليه، فإذا لجأ أحيـانا إلى الكذب أو إلى التشـويه، أو الكسر والتمـزيق أو القطع، فإنـه قلما يفعـل ذلك عن خبث وسـوء نيـة، بل إن ذلك يصـدر عنـه قصـدا فى بعض الأحيـان وعفـوا فى بعضهـا الآخـر، فهـو يجذب غطـاء المائدة كى يستعين بـه على النهـوض، وهو يلـوى ذيل القطـة، لأن ذلك يـدفعهـا إلى مواء بعـد صمت، وإلى حـركة بعـد سكون، وهـو يقطع جـوربه حتى يظهـر قـدرته على استعمال المقـص المعدنى العجيب، وهـو يهشم فـازات الأزهار كى يعبر عن سروره بها، وهو يستخـدم الطباشير والأقلام إذا كشف أنـه يستطيـع أن يترك بها أثـراً على الحوائط أو على قطع الأثاث.

كل هذا يثير فيـه شعورا بالقوة يتظـاهر به، ويستمد منـه متعة كبيرة مـوفورة، ولا يبـدو لـه أن ما وصل إليـه من نتـائج جديـدة يلحق ضررا أو يسبب خسـارة تغضب البالغين.. ويتملكـه العجب، بل الحزن أحيانا إذا وجد أن القوم لايـرضون عن أفعاله.. ويأسى لما ينزل بـه من لوم وتعنيف، ويشعـر شعورا مرهفـا بظلم العقاب وقسـوته.. ومهما يكن من ضرورة حمايـة الطفل من انـدفاعـه إلى معـاودة الإتلاف، فإن مـايفـوق ذلك خطرا وأهميـة أن نفحص كل الظروف والأحوال التى أدت بـه إلى ذلك، وأن ندركها تمام الإدراك.. ويمكن أن يتفادى الآباء كثيرا مما يضـايقهم — فيما نسميه بالميل إلى العدوان — إذا هم خصصـوا غرفـة أو مكانـا يلعب فيه الطفل ويعبث بما فيه كيفما يشاء.

ولكن، لماذا يلجأ الأطفال إلى المبالغة فى التخريب والإتلاف؟

إن الأسباب عادة تكون أحد أو أكثر من أحد الأسباب التالية:

— النمو الجسمى والنشاط الزائد، مع الحياة حياة مغلقة مملة ليس بها نشاط يستنفد النشاط الزائد عند الطفل.

— اضطراب الغدة الدرقية بحيث يزيد إفرازها فيصبح الطفل متوترا دائم الحركة، لايمكنه أن يستقر فى مكان ولابد أن يجد ماتعبث به يداه.

— النمو الجسمى الزائد مع انخفاض مستوى الذكاء.. بحيث لايتمكن، لضعف عقله ، من استغلال نشاطه الجسمى فيما يعود عليه بالفائدة، ويحول دونه والتخريب.

— اضطراب الغدد بحيث تؤثر على التآزر العضلى والتناسق الحركى، وقد يحدث ذلك لبعض الشبان أثناء فترة المراهقة فيكسرون مايقع فى أيديهم نتيجة رعونة فترة المراهقة وزيادة إفرازات الغدد.

— قد يكون التخريب للاضطراب النفسى أو المرض النفسى والشعور بالنقص أو الظلم للانتقام ممن حوله بإتلاف أو تخريب أو كسر مايقع تحت يديه، وذلك بأسلوب لاشعورى، فيشعر باللذة والنشوة لانتقامه ممن حوله.

— وقد يلجأ الطفل إلى إثبات وجوده والسيطرة على البيئة بالتخريب، كنتيجة للشعور بالنقص أو كنتيجة للتدليل الشديد.

— وقد يلجأ الطفل أو الشاب إلى تخريب ممتلكاته، كتمزيق الكتب أو إتلاف ملابسه التى يذهب بها إلى المدرسة، وذك إما لأنه غير موفق فى دراسته ويشعر بالذنب ، وإما لأنه يرغب فى الانتقام من والديه أو الكراهية للسلطة، ونجد كثيرا من هذه الحالات فى الأسر التى بها طلاق أو بها زواج للأب من غير الأم والمعيشة مع زوجة أب.

إننا نستطيع استئصال العدوان من نفوس الأطفال بإنكارنا

وجود العدوان فى تلك النفوس، ولكننـا نستطيع أن نساعد على تعلم مقـاومة هـذا الانفعال حتـى لايصبح من الشدة بحيث يعجـزون، ونعجز معهم عن التحكم فيه.

وإن من خير الطرق التى يمكن للكبار انتهاجها لمساعدة الأطفال فى هذا الشأن هو أن يعلموهم الفـرق بين المشاعر العدوانية (وهى انفعـال طبيعـى لاينبغى أن نجعل الأطفـال يستشعـرون بسببـه الإثم)، وبين السلـوك العـدوانى الذى ينبغى فـرض الحدود عليـه، وذلك أنه من اليسير على الأطفال، إذ يحاولـون تحقيق المعايير التى يفرضها مجتمع الكبار، أن يسيئوا فهـم ماينتظره منهم الكبار، فقد يتوجسون خيفـة من أن يلاموا على مشاعرهم قدر مـايلامون على أفعالهم.

لامنـاص من أن يشعر الطفـل بالغضب بين الحين والحين، بيـد أنه يستطيع أن يعتاد الامتناع عن تصريف هذا الشعور دون حاجة لضغط خارجى، وإن مهمتنا — آباء كنا أو معلمين — هى:

— أن نتقبل المشاعر العدوانية بـوصفها جزءا طبيعيا من حياة الطفل الطبيعية.

— أن نساعد الطفل على أن يعتاد التحكم فى دوافعه العدوانية.

وإذا قام أحـد أطفالنا بتشويـه الحائط بالكتابـة عليها، أو بأى عمل تخريبى أو عدوانى آخر، فعلينا أن نحمله مسئولية عمله الذى قـام به ومـا يترتب عليه من نتـائج.. وإذا ماكسرت إحـدى بناتنـا شبـاكا، مثـلا، فيجب عينـا أن نحملها المسئـوليـة بأن تتحمل من مصروفها اليـومى نفقـات إصلاح هذا الشبـاك أو أن نحرمهـا من مصروفها اليـومى المخصص لها.. والذى نـدفع منه ثمـن الاصلاح المطلـوب، ذلـك لأن الطفل يجب أن يتعلم أن ارتكـاب المخـالفـات السلـوكيـة يـؤدى بالضرورة إلى خسـارة يتحملهـا فـرد أو أفـراد معينون.

والشخص المناسب الذى يجب أن يتأثر بهذه الخسارة ويتحملها هو الشخص الذى صدر منه السلوك الذى نتجت عنه الخسارة الحالية (سعيدة بهادر: دليل الآباء والمعلمين فى مواجهة المشكلات اليومية للأطفال والمراهقين، الكويت، ص ٣٣).

أما إذا تركنا الطفل ينطلق ويفر من ذنب ارتكبه أو عمل أتلف به شيئا.. فإن هذا الأسلوب لن يمكنه من التخلص من هذا السلوك.

وإذا طلبنا من شخص آخر أن ينظف أو يصلح ما أتلف الطفل، فسيترتب على ذلك عدم احترام الطفل للآخرين، وعدم تقديره لملكية الغير.. والأهم من ذلك أن الطفل يدرك الفرق بين التصرفات الخاطئة والتصرفات الصحيحة. وحتى لوأدرك، فلن يعبأ بارتكابها مرة ثانية، لأنها لاتضره فى شىء، بل وإن الأضرار الناتجة عنها سيتحملها غيره.

وكما أن الأفعال العدوانية والتهجمية قد يسببها الخوف أو العزلة، أو الشعور بعدم الصلاحية، فإن المشاعر العدوانية قد تسبب سلوكا لايبدو عدوانيا البتة، مثال ذلك أن أطفالا خجولين هيابين للغاية يتخذون قليلا من الأصدقاء، بل قد لايقربون إليهم أحدا على الإطلاق، وقد ينعمون بمزاولة هوايات هادئة انعزالية، كالرسم وبناء هياكل طائرات.. وإن اختلفوا مع غيرهم من الأطفال كانوا سباقين دائما إلى التسليم، ومن ثمة قد يدخل فى روعنا أن نصيبهم من الشعور العدوانى ضئيل للغاية.. فى حين أن الأمر هو فى حقيقته على العكس من ذلك (عدوان الأطفال، ص ٧٣).

إن السلوك الخارجى قد يعنى أمورا جد مختلفة بالنسبة لمختلف الأطفال، فربما كان الطفل الهادىء أقل حاجة إلى الزمالة فعلا، وإلى ضروب اللهو الخشنة، أو ربما كان حساسا موهوبا، أى شخصا يختلف بعض الشىء فى تعلمه ونموه عن المألوف، ومع

ذلك فيحتمل أيضـا أن يكون هذا السلـوك نتيجة عجـز حقيقى عن المشاركة فى الألعاب الخشنة التى يمارسها غيره من الأطفال.

وإن عجز الطفل عن الاستمتاع بما يستمتع به غيره من الأطفال قد ينتج عنه مشاعر عدوانية أعنف من المعتاد.

ومـــا يحدث فى مثل هـــذه الحالات، هـــو أن الطفل يحرص على الانعـزال لأنه لايستطيع أن يثق فى قـدرتـه على ضبط غضبه، فقـد يحس أن الأضرار الهينة التـى لامفر من وقـوعها لـه فى أى اتصال قـريب بين الناس قـد تستفـز ماتنطـوى عليـه نفسه من عـدوان، فيتشاجر جديا، فى حين لم يقصد الآخرون، ذلك الانتقام الذى لابد واقع إن هو أطلق لمشاعره العنان.

فليدرس كل منكم طفله، وليحاول الـوقوف على علة سلوكه على هذا النحـو: أهو معتد محارب متبجح؟ أهو كئيب حـانق؟ أم ينفجر فى نوبات للطبع يهدأ بعدها؟ أو لعلـه حيى هادىء، وهو أبدا نموذج للسلوك الحسن، يدع الحياة تمر به دون أن يقوم بدور فعال.

أنعم النظـر فى المســألـة، وتفهم كيف يعمل عقلـــه، واذكـر أن المسلك الذى يبـدو منه قديكون تعبيرا عن شعـوره على منوال بعيد غير مبـاشر، ذلك لأن الاعتداء والتبجـح قد يكـونـان قناعـا يختفى تحته الشعور بالإخفاق واليـأس، بينما الاستسلام وعدم المبالاة قد لايكـون سوى غطـاء لجراح نفسية دفينـة ، وقـد يكون ســلوك الطفل من ناحية أخرى تقليـدا يحاول به أن يحاكى سلوك شخص كبير.

على أبواب المجتمع!!

دق الجرس إيذانــا بـانصراف التــلاميـذ فى الصف الثــالث الابتدائى..

وقفز من مقاعدهم أربعة تلاميـذ من مؤخرة الفصل الذى تقوم بـالتـدريـس لـه أبلـة (ايمان)، وهـرعــوا إلى البـاب يتصــايحون ويتـدافعون، وغــادر الفصل عـدد من البنـات يرسمـن معا خططـا لقضاء عطلة نهايــة الأسبوع. وفى بطء - وبطء شديـد جدا - تجمع واحدة من الأطفال كتبها، وتتوقـف قرب الباب وعلى وجهها امارات الانتظـار، ولكن الأخـريـات يسرن مـارات بها دون أن يعـرنها أى التفـات، وتكاد الـدموع تفـر من عينيها، ويظل أحـد الأولاد قابعـا يعبث بأزرار سترته فى تعاسة بادية.

ويمـر هـؤلاء الأطفـال بأعمار متقــاربــة، ويأتـون من بيئـات منزليـة متشابهة، ومع ذلك فإن هنـاك فروقـا شاسعـة بين الطرق التى يتكيفون بها لمطـالب الموقف المدرسى ومجتمع الأطفـال الذى يكـونون جـزءا منـه، ونستطيع أن نقف من (أبلة ايمان) على قـدر كبير من المعلومات عن هؤلاء الأطفال:

وتقـول أبلة ايمان ان الطفل الـذى يمكث فى مقعـده مقتنع تمام الاقتنـاع بأنـه (أغبى تلميذ فى المدرسـة)، فـالـدرس الجديد الـذى يتطلب الحفظ، أو الخبرة الجديدة، من أى نوع، يملأه خـوفا وفزعا. وعندمـا تواجهه مشكلـة ما يعجز عن أن يفكـر فى الخطوة الأولى فى سبيل الحل، وكل مايبدو هو أن يتسـاءل (ممكن ياأبلة ايمان أجيب ماما؟ يمكن هى تعرف تحل المسألة دى).

أما الفتـاة المنتبذة، فهى تـود من كل قلبها أن يحبهـا الآخرون،

ولكنها لاتعـرف كيف تشرع فى اكتساب الأصـدقاء، وتبلغ حـاجتها إلى الحنو درجة تثير فى الأخريات شعـورا بالقلق وعدم الارتياح، إذ يدركن أنها على استعداد لأن تعمل أى شىء فى سبيل الحصول على ابتسامـة تقديـر منهم (ب . لانديس، ج. هـايز: التكيف الاجتماعى للأطفال، ترجمة السيد محمد عثمان، النهضة المصرية، ص ١١).

أما الأولاد الأربعة، فلا يختلفـون كثيرا فى مرحهم وصياحهم عن الأولاد العـاديين الـذين يمـرون بمرحلـة (العصبـة)، وينطبق هـذا الوصف على ثلاثة منهم، أما الرابع فهـو فى طريقه إلى لقاء مجموعة من الأولاد المتصفين بالعنـف والعدوانية، والـذين اتخذوا من أعمال الاعتداء وسيلة رئيسية لقضاء وقت الفراغ.

ونجد أن الفتيـات عموما ــ كغالبيـة الفتيات فى مثل أعمارهن ــ يملن إلى التجمع فى مجموعات صغيرة وتشغلهن تشكيلة منوعة من المشروعـــات وضروب النشـــاط، ويحدث أحيـــانــا ان يترتب على محاولتهن التكيف لما تتـوقعـــه منهن أسرهن ومعلماتهن والمجتمع بصفة عـامة، ظهور بعض المشكـلات، ولكنهن عمومـا قادرات على التصرف فى مواقف الملازمة هذه وحل مشكلتهن.

كيف استطـاعت أبلـة ايمان أن تعـرف هـذه الأمـور عن نـوع التكيف الذى يقوم به الأولاد والبنات فى فصلها؟

لقد ظلت أبلـة ايمان تلاحظ هـؤلاء الأطفال عن قـرب يومـا بعد يوم، وعرفت كيف تقـرأ سمات السعادة أو الشقاء فى تعبيرات كثيرا مايعجز الأطفال عن اخفائها.

ولكن مجرد ملاحظـة سلوك التلاميذ لايكفى للـوقوف على مدى تكيفهم مـالم نكن نعـرف الاجابـة عن هـذا السـؤال الهام: ماهـو التكيف؟ ولماذا هو مطلوب؟ ومامظاهره؟

التكيف الاجتماعى هو العملية التى يكتسب الطفل بها قدرة على

الاستجابة لمطالب المجتمع الذى يعيش فيه ولما يتوقعه منه ويعهد به إليه، ويتعلم أن يسلك على نحو مايسلك سائر أفراد هذا المجتمع. ويرى الآباء والمعلمون أن التكيف الاجتماعى هو وسيلة التربية والتعليم فى تنشئة الأطفال على نحو يجعلهم أعضاء صالحين فى المجتمع الذى ينتمون إليه.

وما أن يشرع الطفل فى أن يحيا حياته، حتى يواجهه المحيطون به بمستويات السلوك فى ميادين كتناول الطعام والتخلص من الفضلات، وبالحواجز يقيمونها فى وجه ماقد يأتيه من سلوك عدوانى بالقول أو بالفعل، وتستمر هذه المستويات فى المدرسة ويزداد عددها لتغطى ميادين أخرى كحدود الحركة داخل حجرة المدرسة. وكلما زاد نمو الطفل تعقدت العلاقة القائمة بينه وبين المحيطين به، وزادت مطالبتهم له بضبط نفسه والتحكم فى سلوكه.

وربما كانت عملية تربية الطفل وتعليمه أبسط كثيرا وأيسر لوأن مصدر هذه المطالب واحد، ولوأن هناك اتفاقا على أفضل السبل لتحقيقها. على أن وجود الفروق الشاسعة أمر طبيعى نظرا لانقسام الناس جماعات على أسس اجتماعية.. اقتصادية أو إلى طبقات وطوائف وانتمائهم إلى أسر ومجتمعات مختلفة، ولاختلاف القوانين التى تهدف إلى تنظيم السلوك (و. أولسون: تطور نمو الأطفال، ترجمة ابراهيم حافظ وآخرين، عالم الكتب، ص ٤٣٤).

وقد يفيد الآباء والأمهات والمربين على وجه العموم أن يفهموا على نحو دقيق كيف أن الجو السائد فى البيت هو المسئول الأول عن كل مانراه فى الأطفال من حسن تكيف أو من سوئه.

ذلك أن الآباء يعملون بوصفهم ممثلين للقيم السائدة فى المجتمع، على تحديد العالم الذى يعيش فيه الطفل، وذلك بإرشاده إلى مايجب عليه عمله ومايجب عليه تركه، ومايسمح له بعمله

وماينبغى لـه عمله، فـالطفل يتلقى من والديـه نواهى مثل (لاتمس هـذا) و(لاتضرب ذاك).. الأمـر الـذى يترتـب عليـه تغير سلـوكـه الاندفاعى الاستطلاعى على نحو يجعله يساير جو البيت والمجتمع، فضروب المنع التى يفـرضها عليـه أبـواه تصبح ضروب منع ذاتى. وعنـدما يـوجـه الطفل الأسئلة إلى والـديـه فإنهما يجيبان عنهـا فى ضوء المعلومات والمعتقـدات والعادات السائدة فى الأسرة والجماعة، وهذه بدورهـا تختلف باختلاف الاتجاهات التى ينحـاز إليها الفرد والمجتمع.

وقـد قارنت إحـدى عالمات الطفـولـة بين الدرجـات التى حصل عليهـا أطفـال الحضـانـــة على مقـاييس للتكيف الاجتماعى، وبين مختلف المعلومـات التى حصلوا عليها أثنـاء مقابـلات أجريت مع آبـائهم وأسفـرت المقـارنة عـن أن آباء الأطفـال الـذين نجحـوا فى التكيف لجو الحضـانـة كـانـوا أقـل من غيرهم تعـرضـا لضروب الصراع والتوتـر فيما يتعلق بالجنـس والأصدقاء والعمـل والأقارب والحالـة الصحيـة، وأن آبـاء هؤلاء الأطفـال وأمهـاتهم اتفقـوا على أســاليب تـدريـب الطفل وتهذيبـه، وأن لــديهم قــدرة على فض خلافاتهم والوصول فيها إلى حلـول مرضية للطرفين، وعلى اقتسام اختصـاصات تـوجيـه الطفل فى مختلف الأمـور، وأن جو التعـامل بينهم يســوده الاحترام المتبادل، وإن مـابينهم من فروق فى طـرق قضـاء وقت الفـراغ والـذوق وأوجه إنفـاق المال لاتـؤثـر كثيرا على العلاقات بينهم.

ولعل القواعد الآتية تعين الآباء والأمهـات على تربية أبنائهم على درجـــة عـــاليـــة من حسن التكيف الاجتماعـى (مصطفى فهمى: سيكلوجية الطفولة والمراهقة، مكتبة مصر، ص ١٤٧ ـ ١٤٩).

— أن يشعـر الطفل أنه مـرغـوب فيـه، محبوب، وتحقيق هـذه

الحاجات النفسية عن طريق الوالدين والأخوة، ويعتبر تحقيقها الدعامة الأولى لتقوية الروابط الوجدانية بين الأطفال وذويهم، وإن طفلا يترعرع فى جو من الخوف أو الكراهية أو الإحساس بالإثم، لخليق أن تنتابه نزعات شريرة تجاه المجتمع.

— الطفل فى السنوات الأولى من عمره يميل إلى أن تشعره بذاتيته، وبأنه فرد يستطيع أن يقوم بأعمال، ولذلك تراه كثيرا مايلفت نظر من حوله ليشاهدوا مايقوم به من أعمال، ويحسن إذ ذاك أن نعلق على هذه الأعمال بكلمات الاستحسان والتشجيع، فالطفل إذ يقوم بنشاط معين، إنما يريد أن يشبع حاجة من حاجاته النفسية، ونعنى بها حاجته إلى التقدير.

— يستطيع الطفل، فى محيط الأسرة، وكذلك فى محيط المدرسة أن يتعلم كيف لايكون أنانيا، بمعنى أن يتعلم كيف يحترم حقوق الغير، ولعل الألعاب الجماعية خير فرصة لذلك، وأيضا عن طريق بعض الأنشطة المدرسية والجماعات الخاصة بها.

— يكوِّن الأطفال فى سنيهم المبكرة بعض الاتجاهات بطريقة لاشعورية، فالأب هو رمز للسلطة، ومن هنا يتوقف الأمر على سلوك الأب وكيفية ممارسته للسلطة: هل يتيح الفرصة لسائر أفراد الأسرة للمشاركة بالرأى؟ ذلك أن الاستبداد بالسلطة ربما يكون سببا فى بذر بذور كراهية لدى الطفل توجهه فى المستقبل نحو المجتمع بصفة عامة، كما أن الكثير من جرائم الأحداث يرجع فى أصله إلى كراهية الأطفال للسلطة فى ظل سوء ممارسة الأب لها.

— يتعلم الأطفال فى الأسرة وفى المدرسة المبادىء الأولى التى يسيرون عليها فى التفاعل مع الغير، ويكون ذلك عن طريق ملاحظة سلوكهم واستجاباتهم فى المواقف المختلفة، فهو عن طريق هذه الملاحظة يشاهد أنماطا مختلفة من السلوك: فهنالك من بين أفراد

لايعـاقب، وهنالك من يقول ويعـد إلا أنه لاينفذ وعوده.. إلخ.

إن الأطفـال فى هـــذه السن المبكـرة يكتشفـــون ويحســـون كل مايـدور حولهم، وتصدر منهم عبـارات ساذجة فيهـا تحليل كامل لسلـوك من حـولهم من أفراد.. ونستطيـع أن نوضح ذلك بحـالـة طفلة فى الثانية والنصف من عمرهـا، كانت تهددها مربيتها بقولها: «سأبلغ والدك بما تفعلين ليعاقبك بالضرب» .

فأجابت الطفلة الصغيرة : « إن أبى لايضرب، وإن كل ماسيفعله عندما تبلغينه: يغضب».

— وإذا كان حسن التكيف يعتمد على مدى شعور الطفل بتقبل والديه وحبهما لـه، فلكى يشعر الطفل بذلك، فإنـه يحتاج كذلك إلى أن يشعر أنهما يستمتعان بصحبته ويسعدهما وجوده.

ومعظم الأمهات تشغلهن شئون الحيـاة، فمنهن من تعمل خارج المنـزل، ومن لم تكـن حـالها كـذلك، فإن لـــديها من أعمال البيت مايستأثر باهتمامهـا كل يوم، ومع ذلك فواجب الأم أن تهمل بعض الأعمال لتصطحب أطفالها خارج المنزل لتتيح لهم فرص الترويح.

— كـذلك فإن تشجيع الأطفال على المشـاركة فى شئـون الأسرة وتهيئـة الفـرصة لهم لكـى يتحملوا المسئـوليـة التى تتنـاسب مع مستوى نمـوهم، أهم بكثير من الإتقـان البالغ والـدقة المتنـاهية فى العمل.

— يسير الاستقلال جنبا إلى جنب مع تحمل المسئولية، فالطفل الـذى يوجـه إلى تحمل مسئوليـات متـدرجة فى الصعـوبة، ســوف يكـون قـادرا على البت فيما يعن لـــه من مســائل، وعلى أن يستقل بتفكيره قبل أن يستطيع الطفل المدلل الـذى تـؤدى واجبـاته كلهـا نيابة عنه.

قل لى من يعاشر ؟

قل لى من يعاشر ؟ أقل لك من هو.

المرء بقرينه يقرن..

اللى يجاور الحداد ينكوى بناره.

مأثورات ثقافية وشعبية متعددة كلها تدور حول حقيقة تربوية وهى أن الإنسان يتأثر تأثرا كبيرا بمن يعاشرهم.

وإذا كان معروفا الدور الذى يقوم به الوالدان، مما كان — وسوف يظل — موضوع حديثنا فى كثير من المواضع، فإن مايحتاج إلى تنويه، هو ذلك الدور الخطير الذى يؤثر به (الأصدقاء) على الفرد وخاصة كلما نما متجاوزا سنوات عمره الأولى، لتصل قوة تأثير هذا العامل ذروتها فى فترة المراهقة.

والطفل قبل الثانية من عمره لايهتم كثيرا بغيره من الأطفال، إذهو يتطلع إلى الإفادة والتعلم من الكبار البالغين، ومن الغلمان الذين يكبرونه، ومن الدنيا العجيبة التى تحيط به، بل إن الحظ لو واتاه لأتيحت له فرصة للتعلم من الرضيع الصغير الذى وكلوا إليه العناية بجانب من شأنه.. على أنه بعد سن الثانية يبدأ فى ملاحظة غيره من صغار الأطفال. وهو قد يقتصر على أن يرقبهم أثناء انصرافه إلى لعبه الخاص، لكنه يرتاح إلى وجودهم عن كثب منه.. وقلما يندفع الأطفال من تلقاء أنفسهم إلى اللعب جماعات وهم بعد فى رياض الأطفال، لكن وجودهم معا يكسبهم عادات أساسية مثل (حاجتى وحاجتك) (عش واترك الآخرين يعيشون).

وبالنسبة للصحبة التى تلزم الأطفال فيما دون الثانية من العمر، فلا بأس من الاكتفاء بما يتأتى منها فى محيط الأسرة

المألوف، فإذا لم يوجد فى البيت أطفال آخرون، كان على الكبار أن يحسنوا ملاعبة الطفل ويشاركوه ألعابه حتى يكون له هذا تدريبا على الاتصال فيما بعد بغيره من الأطفال.

وفيما بعد الثانية ، ينبغى أن يصرف الطفل الشطر الأكبر من أوقات لعبه مع غيره من الأطفال الذين يماثلونه فى السن أو يزيدون عنه قليلا، والجزء الأصغر مع الأطفال الذين يصغرونه أو الذين يكبرونه بكثير، ذلك لأن الطفل يلقى إجهادا كبيرا لو أنه فرض عليه أن يلاحق من يفوقونه من الأطفال، رغم أن جانبا محدودا من هذا إنما هو مثير نافع عظيم الفائدة.

أما كثرة اللعب مع من يصغرونه، فإنه لن يزوده بما يكفى من المثيرات رغم أن قضاء بعض الفترات القصيرة معهم أمر كبير الفائدة لتنمية الرعاية والعطف على الآخرين فى نفسه.. على أنه بعد سن الثالثة من الخير أن تدعه يقضى بالتدريج جانبا أكبر من وقته مع من يصغرونه من الأطفال، ففى هذا تدريب له على ضبط النفس والسماحة وبذل العون والعطف والحنان، وغير ذلك من الصفات اللازمة لخيره وخير الناس (إسحق رمزى: مشكلات الأطفال اليومية، مترجم، ص ٢٩٨).

وتتميز مرحلة المدرسة الابتدائية بميل الأطفال إلى التجمع فى مجموعات داخل المدرسة وخارجها، ويظهر هذا الميل فى حوالى سن السادسة، ويستمر فى النمو والتطور حتى حوالى العاشرة، ويظل قائما فيما بعدها.. وقد تظهر جماعات الأصدقاء فى السنوات الأخيرة من المرحلة الابتدائية والسنوات الأولى من المرحلة الثانوية، ويبدأ الأطفال يتحدثون عن (شلتنا)، وقد تتولد مشاعر الولاء للمجموعة ومشاعر العداء لمن لاينتمون إليها، وترسم بوضوح معالم (الشلة) والحدود الفاصلة بينها وبين غيرها. ومن المفيد أن

نفهم قيمة هذا التجمع بالنسبة للنمو والتطور وما قد يعترض طريقه أحيانا من صعوبات.

وتقوم الجماعات المتجانسة عادة على أساس تقارب السن وتشابه الميول وتجاور السكن، فكثير من الألعاب هى ألعاب جماعية تتطلب مساهمة عدد من الأطفال لكى يتحقق لها النجاح، كما أن إقبال الأطفال فى مرحلة الطفولة المتوسطة على المعسكرات يرجع إلى ميلهم إلى المشاركة فى مختلف أوجه النشاط. وجدير بالذكر فى هذا المجال فرص المغامرة التى تتيحها لهم ألعاب مثل (عسكر وحرامية) وما شابهها (أولسون: ص ٤٧٢).

ويكتسب الطفل كثيرا من مهاراته الاجتماعية بفضل انتمائه إلى شلة الأصدقاء أو الرفاق، وبينما هو يتعامل مع سائر الأطفال فى مثل سنه، يكتشف أن لهم آراء فى السلوك المحمود تختلف عن آرائه، وأن فى استطاعته وضع الخطط وتطويرها بالاشتراك مع غيره من أفراد المجموعة، وقد يترتب على مساهمة الطفل فى نشاط شلة الرفاق صراع بينه وبين الكبار المحيطين به بشأن ما يرون أنه سلوك مرض وعادات طيبة.

وعلى الكبار أن يدركوا أن الشلة تسهم بجانب كبير فى تعليم الطفل ما يحتاج إلى تعلمه، وأن الوالد الذى يسرف فى الإشفاق على ولده وإحاطته بالرعاية والحماية إنما يحرمه من فرص اكتساب المهارات الاجتماعية عن طريق التعامل مع باقى أعضاء مجموعته.

وتضع شلة الرفاق معايير للسلوك والملبس على جانب كبير من قوة التأثير، ويكون الإصرار على فرض اتباعها عادة من الشدة بحيث لايجرؤ الطفل على مخالفتها، وكثيرا ماتكون الشلة بمثابة

المجال الذى يتيح للقادة أن يظهروا، ولمختلف طرق اتخاذ القرارات أن تكتشف.. ويستطيع الطفل أن يعرف مايتوقعه منه سائر أفراد المجموعة مما يبدونه من استحسان أو استهجان لتصرفاته .. ومن المهم التأكيد هنا على أن أمن الطفل رهن بشعوره بالانتماء إلى المجموعة.. وعلى هذا فإن رفض المجموعة لطفل ما يمثل بالنسبة له خبرة نفسية مؤلمة.. ويظهر هذا الرفض عادة فيما يتبادلونه من حديث ويأتونه من سلوك، كما يظهر فى تجنبهم الارتباط أو الاتصال بالطفل.

ونظرا لقوة تأثير الجماعة، فإن قدرتها على رسم الطريق المعوج أمام الطفل لاتقل عن قدرتها على رسم الطريق السوى. ومعنى هذا أن الانتماء إلى الشلة قد يكون عامل هدم، بقدر مايكون عامل بناء.

وتتكون جماعات الأطفال من نفس الجنس، وتبدأ الجماعة أو الشلة عادة بثلاثة أو أربعة أفراد، ثم بازدياد اهتمام الأطفال بالألعاب الرياضية يزداد عدد الشلة تدريجيا بحيث يصبح هناك عدد كاف لتكوين فريق للعب، وكقاعدة، فإن شلل الأولاد أكثر عددا من شلل البنات. ويتأثر حجم الشلة بعدد الأطفال الممكن التقاؤهم والنشاطات التى يود أفراد الشلة الإندماج فيها.

وعادة ما تكون الأنشطة التى تقوم بها جماعة الأولاد من النوع غير المقبول من الكبار، فعادة ما يكون فيها مضايقة للناس، مثل التدخين ومعاكسة البنات أو السرقة. أما شلل البنات فقليلا ماتندمج فى أنشطة غير مقبولة إجتماعيا وإن كانت فى بعض الأحيان يمكن أن تقوم بأمور غير مستحبة.

وتختلف أنشطة الجماعة من مجتمع لمجتمع، ومن مستوى اجتماعى لآخر داخل المجتمع الكبير، ورغم هذا فهناك تشابه من

حيث ميلهم إلى المباريات الرياضية والذهاب إلى السينما أو مشاهدة المباريات الرياضية واكتشاف البيئة، أو حتى الجلوس للكلام والأكل.

وعادة ما يكون للجماعة مكان ثابت للقاء، قد يكون ركنا فى شارع أو قبوا فى منزل، أو فناء أو حظيرة أو مكانا مهجورا أو غير ذلك، وعادة ما تكون أماكن لقاء الأولاد بعيدا ما أمكن عن المنزل ليكونوا بعيدين عن رقابة الكبار وتدخلهم فى شئونهم. وأما البنات، فكثيرا ما تكون لقاءاتهن الدورية فى منزل إحداهن حيث يتوافر المكان والحرية ليفعلن ما يحلو لهن.

وتعد الشلة من الوجهة الإجتماعية جماعة منظمة تنظيما جيدا، فلديها أسرارها التى تحتفظ بها ضد أى غريب أو أولئك الذين لايرغبهم أفراد الشلة كأعضاء فيها. كما أن هناك قدرا كبيرا من الصراع من أجل المكانة، وتنتهى الصراعات عادة بإعادة تنظيم الصداقات، ولذلك فصداقات الأطفال نادرا ما تتصف بالاستقرار، فقد يتحول الطفل من صديق عزيز إلى عدو، أو من علاقات سطحية إلى صداقة وثيقة بسرعة ولأسباب تافهة.

ومن أكثر أسباب تغيير الصداقات كما يعبر عنها الأطفال أمور مثل: الشجار والسيطرة وعدم الإخلاص والمكر والغرور والمعارضة والتنافر، وكلما كبر الأطفال تصبح صداقاتهم أكثر استقرارا. وقد وجد أيضا أن الأطفال الذين يتمتعون بشعبية بين أقرانهم كثيرا ما يغيرون صداقاتهم مثلهم فى ذلك مثل الأطفال الذين لا يتمتعون بشعبية.

وفى فترة المراهقة يكون للشلة دور أكثر أهمية، إذ من طبيعة المرحلة أن يحاول المراهق الإستقلال عن البيت والأسرة وترك الإعتماد على الأبوين، ولكن المراهق يخاف من هذا الاستقلال فى

نفس الوقت، حيث سيحـرم من الأمان الذى عاش عليـه طوال فترة الطفولـة، وخلال ذلـك الصراع بين الحاجة إلى الإستقـلال والحاجة إلى الأمـان يجد المراهق من يوفـر له الأمـان المفقود، ويشـجعـه على الإستقـلال المأمـول، وذلك عن طـريـق جماعـات الأصـدقـاء التى تستهـويـه وتجتذبـه نحـوهـا وتخضعـه لـولائها وتعـده للحيـاة الإنفعـاليـة الإستقـلاليـة، وتنقـذه من كثير من التنـاقض النفسى والإجتماعى المحيط به.

فقد يشعر المراهق بين الأبوين أو فى حضرة الكبـار عامة بضآلة شخصيته وقلـة تجاربه، وصغر سنه، فيـؤدى ذلك إلى نفوره منهم حيث أنه يريـد أن يشعر بأنه لم يعد طفـلا، كما أنه فى نفس الوقت حديـث العهد بالطفـولة يهوى حيـاة اللعب والتسلية، ولكـن وجود المراهق بين الأقـران يشبع فيه تلك الحاجـات المتناقضــة، فهو بين الأقـران لا يشعر بأنـه صغير أو ضئيل لا فى جسمه ولا فى أفكـاره أو شخصيته، كما أنه فى الوقت نفسه يستطيع أن يشبع حاجته إلى اللعب ورغبتـه فى التسلية معهم مع وجـود الأمان بعيدا عـن عيون الأسرة.

وتجدر الإشــارة إلى أن انـدمــاج المراهق أو المراهقــة فى شلل الأصـدقـاء والاهتمام بمظهـره فى أمــاكن التجمع يعتبر تعبيرا عن حاجة المراهق إلى الانتماء، وإلى أن يشعر بأنه أصبح راشدا، كما أن هـذه الجماعـات تعـده للمستقبل ويتعلـم عن طـريقهـا الكثير عن الجنس الآخـر، فيتعلم كيف يصـادق أو يصاحـب ويختار شريكـة حياته.

وينبغى أن يراعى أن التعـارف البرىء بين المراهقين والمراهقات فى جماعات الأصـدقاء تحت إشراف وتـوجيه المدرسـة أو الأسرة له أهميتـه الكبيرة فى تنمية هـذا الإتجاه الإيجابى، وفى تزويـد كل من

الجنسين بالثقة فى الجنس الآخر، وبالأمان النفسى وبالإستقلال الإنفعالى عن الأبوين والأسرة. وقد تؤدى المعارضة الجاهلة لإهتمام المراهق أو المراهقة بالإنضمام إلى هذه الجماعات الموجهة، إلى الإنخراط فى جماعات أخرى قد تكون خطرا على مستقبلهم وعلى مستقبل الأسرة والمجتمع (حامد الفقى ،.ص ٣٨٩).

لغة الطفل

كنت جالسا منذ أيام أمام التليفزيون أشاهد برنامجا للأطفال، فاذا بى أسمع المذيعة تقول لأحد الأطفال مشيرة إلى لعبة فى شكل فيل طالبة منه النظر إلى هذا الفيل (الزغنن)!!

أقول الحق، لقد أثارنى نطقها بهذه الكلمة (زغنن)، وتساءلت بينى وبين نفسى: لم لا تقول المذيعة أن الفيل (صغير) هل هذه الكلمة صعبة لا يستطيع أن يفهمها أو ينطقها؟ وكم من هذا كثير. ننطق بكلمات أمام الأطفال عفوا أو قصدا دون أن ندرى أنها تدخل إلى أذهانهم مفاهيم مغلوطة أو أفكاراً تافهة متصورين أن الكلمات مجرد حركة لسان وذبذبات هوائية دون أن ندرى أن اللغة التى ننطقها انما تشكل العقل والوجدان، وبالتالى تعبر عن مستوى التفكير ومضمونه.

كنت أقضى شهورا محدودة فى جامعة الكويت أستاذا زائرا، حين أوقفنى أحد الاساتذة الفلسطينيين فى أواخر عام ١٩٨٨ على تجربة هامة:

فعلى الرغم من أن الزميل كان متخصصا فى طرق تدريس اللغة الانجليزية، لكنه اتفق مع زوجته عندما رزقا بأول طفل، ألا يتحدثا أمامه الا بالعربية الفصحى المبسطة، حتى أصبح الطفل بالفعل متحدثا جيدا بها دون أن يشعر أن فيما يفعل تكلفا وجهدا وتعبا. وعندما التحق الطفل بالمدرسة الابتدائية كانت المشكلة أن الكتب الدراسية ينتهى من درسها وفهمها فى أقل من نصف العام الدراسى، ويضطر أبوه إلى ملء وقت الفراغ بقراءات خارجية تدور حول موضوعات عولجت فى الكتب المقررة.

وفسر الأب هذا بأن الطفل يبذل جهدا كبيرا ووقتـا طويلا عندما يقـرأ كتب المدرسـة فى الصفوف الأولى حتـى يفهمها من النـاحيـة اللغـوية أولا، ذلك لأنـه يجد نفسـه ومن حولـه يتحـادثون لهجـة تختلف كثيرا عن لغة الكتب، فكأنه يتعلم لغة جديدة. وعندما تدرب الطفل المشـار إليـه وتعلم قبـل الالتحـاق بـالمدرسـة التحـدث بالفصحى، وجد أنه قد (وفر) على نفسه وقتا وجهدا طويلين.

ولم يقتصر الزميل على هـذه التجربة (الشخصيـة)، بل استطاع أن يقنع البعض بالتعاون لإنشاء دار لـرياض الأطفال يتم التحدث فيها مع الأطفال أيضا بالعـربية الفصحى فقط، ولذلك كان اختيار المربيـات عمليـة دقيقـة وصعبـة، اذ اشترط عليهن ألا يتحـدثن الا بالفصحى. ودعـانى الرجل إلى زيـارة الدار، وبالفعـل فوجئت بأن اطفـال الـرابعة والخامسـة من العمـر يتحـادثون ويلعبـون معـا بالعربية الفصحى.

وقـد التفت اللغويـون والمربـون إلى أهمية الكلمات بـاعتبارهـا رموزا لغوية أساسية فى فهم المادة المقروءة، واستعمال اللغة كلاما وكتابـة، وانشاء المعانى الجديـدة، فاللغـة سواء أكانت شفـوية أم كتابة ليست الا رموزا، ومـا ينقل من شخص هو المعنى عن طريق الرموز، والنـاس يكونون على درجات مختلفـة من ادراك المعانى فى القراءة والكتابة والاستماع والحديث تبعا لحصيلتهم اللغوية.

والشخص يقوم بعمليـة التفكير عن طريق المعـانى التى عنده، فهى أداته التى يستخدمها فى الوصول إلى أحكامه، وفى تكوين آرائه وفى الوصـول إلى نتائجه، وهى أداتـه فى خلق معان جـديدة. ولكى يقوم الانسـان بعملية التفكير على الـوجه الصحيح، لابـد أن ترتبط المعـانى فى عقله بـرموز لفظيـة، وقلما يستطيع أن يفكـر بالمعـانى ذاتها.

ويستعمل الطفل فى العــام الأولى من حيـاتـه الكلمـــة فى معنى الجملة، ويطلق على هـذه المرحلة التعبيرية (مرحلـة الكلمة الجملة)، وهى مرحلة تعبيرية غامضة بالنسبـة للسامع، فالطفل عندما يرى كرة أمامه ويقول (كرة)، فإن الســامع تتطرق إلى ذهنه معان عدة، أيريد الطفل بذلك أن يقول: (العب معى بـالكرة) أم يريد أن يقول: هـذه كرتى.. أم يـريد أن يقـول: (ناولنى الكـرة)، إلى غير ذلك من الاحتمالات الكثيرة التى يعتمد الكبار فى اكتشــاف مراد الطفل منها على ما يظهر عليه من انفعالات عندما يقومون بتلبية نوع خاص.

ويستطيع الطفل فى ســن عـــامين أن يستعمل فى تعبيره كلمتين معـا، ثم يأخذ عـددد الكلمات فى الزيـادة وفقا لسن الطفل ودرجـة ذكائه والبيئة التى يعيش فيها.

وعبارات الطفل فى السنـوات الأولى من حياته تكـون سليمة من الناحية الوظيفية، بمعنى أنها تؤدى المعانى التى يريد الطفل التعبير عنها، ولكنها تكـون غير كاملة أو غير صحيحة من نـاحية التركيب اللغوى.

ويستطيع الطفل بعـد انتهاء العـام الثانى التعبير عن أفكـاره فى جمل قصيرة بسيطـة، كما أنـه يستطيع استخدام الافعـال فى بنـاء الجملـة، وهكذا يأتى استخـدام الفعل فى مـرحلة متأخـرة، فإدراك الأسماء واستعمالها يسبق ادراك الأفعال واستعمالها، ويـرجع ذلك إلى ما فى طبيعـة الفعل من تعقيد، اذ أنه يـدل على (حدث) و(زمن) بعكس الأسماء.

ويتمكن الطفل فى عامه الثـالث من استعمال جمل عدد مفرداتها ثلاث كلمات، ثم تزداد قدرته على تكوين الجمل حتى يتمكن فى سن الرابعة والنصف من استعمال جمل تتكون الـواحدة منها من أربع مفـردات أو ست، وتنمو قـدرة الطفل على استعمال الجمل المركبـة

تبعا لدرجة ذكائه ومستواه الاجتماعى والثقافى.

وتختلف السن التى ينطق الأطفال عندها كلماتهم الأولى باختلاف الأطفال، فهى تتراوح — حسب ما استخلص من سير الأطفال - بين الشهر الثامن والشهر العشرين.

ومما يصور صعوبة اللفظة الأولى على وجه الدقة أن أحد علماء الطفولة وضع تحت ملاحظته طفلة فى الشهر الحادى عشر من عمرها كانت تعلمت قول كلمة (كوكو) كجزء من استجابتها عند حملها إلى النافذة لمشاهدة القطارات المارة أمام المنزل. وقد ظلت الطفلة مدة من الزمن وهذه الكلمة ترددها أيضا عند رؤية الطائرة تحلق فوق البيت، ولكن نظرا لأن هذه الاستجابة لم ترسخ ترددها أيضا عند رؤية طائرة تحلق فوق البيت، ولكن نظرا لأن هذه الاستجابة لم ترسخ بالتكرار، فانها سرعان ما أسقطت وأصبحت مقصورة على مرور القطارات بوجه خاص، فالطفل فى المراحل الأولى لتعلم اللغة يربط الكلمة بعنصر من عناصر الموقف الكلى، وهذا العنصر كان فى حالة الطفلة المذكورة هو صوت القطار.

واذا نظرنا إلى اللغة نجد فيها أشياء مادية محددة مثل (قرد - كلب سيارة) وغير ذلك من الأشياء المادية، كما أن هناك أشياء تشترك فيما بينها فى بعض النواحى أو الخصائص مثل (حيوانات - طعام - عربات)، وهذه الكلمات كلمات مجردة.

وفى السنوات الأولى لتعلم الطفل الكلام نجد هناك تطورين فى اللغة، أحدهما هو أن الطفل يتعلم الكلمات المادية ويعممها مثل استعمال كلمة (كلب) لتدل على كل الحيوانات، وثانيهما: ان يتعلم الطفل الكلمات المجردة التى تمثل مجموعة من الأشياء المختلفة. (محمد جميل منصور، وفاروق عبدالسلام : النمو، من الطفولة إلى المراهقة، جدة، ص ٣٢٣).

وفيما بين الثالثة والرابعة تتحدد المفاهيم بما لها من أفعال أو تصرفات أو وظائف، فالكلاب أشياء تنبح، والابقار أشياء تزودنا بالحليب، وفيما بين السنة الخامسة والسادسة يشرع الطفل فى تعريف الأشياء أو تحديد مفاهيمها على أساس من الأسماء المجردة مثل: (الكلب حيوان، واللبن طعام).

ويغلب على لغة الطفل أن تمركزها حول الذات، وتعليل ذلك أن الطفل قبل سن الخامسة غير اجتماعى، وتغلب عليه روح الانانية، فهو محصور فى دائرة ضيقة من ذويه وأقاربه، وهم يؤثرونه بالحب والحنان، ويمنحونه ما يريد، فهو لديهم قرة عين.

وحيث إن خبرات الطفل فى هذه السن محدودة، لذلك نجد حديثه يتمركز حول نفسه، فمن حديث طفل عمره ٦ سنوات، و٦ شهور: (أنا رحت مع بابا السوق وأنا قلت له هات لى زمارة، وبعدين أنا بصيت لقيت واحد ماشى، وأنا خفت منه).

ويستطيع الأباء والأمهات تنمية مهارة الطفل اللغوية باتباع الآتى (هدى قناوى: الطفل تنشئته وحاجاته، ص ١٦٣):

— تدريب الطفل على الاهتمام بما يعرض عليه، فالطفل ميال إلى الاستماع للحكايات والقصص، ولا يخفى ان القصة وسيلة هامة للتنمية اللغوية.

— مناقشة الطفل فيما يستمع إليه، فبعد أن تحكى الأم بعض القصص التى فيها بعض المواقف الصعبة يمكن أن تطلب من الطفل تصوره للحل، ويمكن أن تناقشه فى كل حل ذكره ومزاياه وعيوبه.. الخ

— تعويد الطفل الانطلاقى فى الحديث: على الأم أو الأب أن يكثرا من الحديث مع الطفل حول حاجاته الأساسية والأشياء الخاصة به (ملابسه، لعبه، طعامه، أجزاء جسمه.. الخ) ودائما

تسـأله: (ايه ده؟ بتعمل ايه) وذلك لاكسابه حصيلة لغوية واسعة.

— تصحيح أخطـاء الطفل اللغويـة: على الأم أو الأب أثناء تـرك الطفل ليعبر عن افكاره، ومناقشته فيما يفعله وما قام به من أعمال فى روضتـه ومع زمـلائه، وفى تعبيره عما يمارسـه، يجب عليهـا أن تراعى تعويـده منذ بداية كـلامه على الصياغة اللغـوية الصحيحة، وأن تعـوده على استعمال التراكيب النحـويـة السليمـة من خـلال صيـاغة أسئلتـه واستفساراتـه، وتصحيح الأخطاء التى يقع فيهـا الطفل بهدوء دون تخويف أو ارهـاب أو سخـرية أو استهـزاء وألا نكـرر أخطاء الطفل اللغـوية وألا نضحك منهـا ونقلده فيهـا حتى لانثبتها فى ذهنه.

جيل تليفزيونى!!

أصبح هذا الوصف شائعا على ألسنة كثيرين عندما نسمع طفلا يقـول كلمة أو عبـارة أو يأتى تصرفا أو يسأل عن شىء أو يقـول تعليقا نشعر معه بأنه تجاوز مـرحلته العمرية، ذلك أن طفل الأمس كـان محيطـه الثقـافى محدودا بـالبيت وبمجـال أسرتـه الممتـدة وبالجيران والأقارب، حتى إذا ذهب إلى المدرسـة قلنا ان هذا المحيط قد اتسع ليضم إليه مساحـات عريضة تشمل عشرات التلاميذ بما يأتى به كل منهم من خبرات وعادات وتقاليد ومفاهيم واتجاهات.

ولاشك أن هـذا المحيط الثقافى يشكل مصـدرا رئيسيـا للتغذيـة العقلية والاجتماعيـة والثقافيـة يسهم فى تنمية جـوانب الشخصية المختلفة. فما بالنا اليوم بهذا الصنـدوق السحرى الذى استطاع أن يوسع من المحيط الثقافى للطفل ليجعله شاملا لمعظم أنحاء العالم.

فهذه الأفـلام والمسلسلات الأجنبية التى تعرض لألـوان الحياة فى مجتمعـات غربيـة متقدمـة، وخـاصة الـدول الكبرى: الولايـات المتحدة الأمريكية، وبريطانيا، وفرنسا وغيرها.

وهذه نشرات أخبار، تنقل فى التو واللحظة معلومات مختلفة عن أحداث العالم شرقه وغربه.

وهذه أفلام ومسلسلات عربيـة لاتتصل بالواقع المعاصر وحده وانما تمتد زمنيا إلى عشرات سنين مضت تتحـدث عن الملك والباشا والبيـه والاقطـاعى، وأنـاس يلبسـون الطـرابيش، بل وعن قـرون ماضية.. المماليك والفاطميين والعثمانيين وعرب الجاهلية.. عاداتهم واتجاهـاتهم ومـلابسهم وبيوتهم ولغتهم.. وهكـذا عشرات الأمثلـة التى تشير كلها إلى أن طفل اليوم، قياسـا إلى طفل الأمس، هو أشبه

بمن يجلس على مـائدة طعام مسـاحتها عشرات الأمتار، عليهـا كل الأصناف الموجـودة فى الدنيـا، وطفل آخر يجلس إلى (طبليـة) ليس عليها إلا الطعمية والفول المدمس والعدس والخبز الأسمر!!

ومهما يكن الأمر، فإنم بـرامج التليفزيون تثير مشـاكل حقيقية تزعج الآبـاء والمعلمين، منها اهمال الواجبات المدرسيـة، واضطراب مواعيد تناول الطعام، وأعـراض الاجهاد والأرق أو اضطراب النوم، وقيمة مشاهدة البرامج ، بالمقـارنة إلى اللعب فى الهواء الطلق، وماقد يحدث من تحول الطفل عن القراءة واقلاله منها.

على انه يبـدو أن مشكلة المشكـلات تتمثل فيما يمكن أن نسميه آثار الجو الثقـافى الذى تخلفه وتنميـه برامج الاذاعة والتليفـزيون، وهى آثار خفيـة لاتتيسر ملاحظتها الا على مدى طـويل من الزمن، ذلك انها تعمل على انتشار أسـاليب لغوية معينة ومعـايير سلوكية ومعلـومـات عن العـالم تنتقل إلى الأطفـال فى بيـوتهم، واتجاهـات سليمة، أو غير سليمة نحو مواطنى سـائر بلدان العالم، وثمة كذلك مشكلة تنظيم ساعات الانصات والمشـاهدة، وماقد يترتب عليها من خـلاف بين الآباء والأبنـاء، وماتتيحـه فى الـوقت نفسه من فـرص تنمية القدرة على حسن الاختيار.

وفى دراسـة ميدانيـة عن الأسبـاب التى تدفع الطفل فى سنـوات عمـره الأولى لمشاهـدة بـرامج التليفـزيـون تبين أن هذه الأسبـاب تنحصر فيما يلى:

— السرور والبهجـة اللذان يشعـر بهما الطفل، فـالطفل لايجد مشقة أو جهد فى الاستمتاع برامج التليفـزيون، فما أن ندير مفتاح الجهاز حتى يستطيع أن يشاهد البرامج وهو فى حالة استرخاء.

وسواء كانت البرامج التى يقدمها التليفـزيون خيالية أو واقعية، فإنه يلبى حـاجة الطفل، فيقـدم له البرامج المحببة إلى نفسـه، يقدم

إليه القصص الجميلة، والشخصيات التى يحبها والمباريات التى يهواها، والتسلية التى ترضيه وتجعله يشعر بالسرور والفرحة.

ومن الملاحظ أن الأطفال يرتبطون ارتباطا وثيقا ببرامج معينة، فيعرفون مواعيد إذاعتها مقدما وينجزون أعمالهم التى قد تؤخرهم عن مشاهدة هذه البرامج كاستذكار دروسهم مثلا، وماإن تبدأ هذه البرامج حتى يكون الأطفال أمام الشاشة الصغيرة، كما أن ارتباطهم يكون أكثر وأكثر مع شخصيات هذه البرامج وأبطالها، يتابعون بأبصارهم وعواطفهم كل حركة، وكل مأزق قد يحدث لأبطال القصة، مثلا كما حدث فى (سوبرمان)، فهم يقلقون ويضطربون عندما يدخل البطل فى مأزق، وسرعان مايتسرب الفرح إلى قلوبهم بمجرد انتصاره وخروجه من هذا المأزق معبرين عن هذا الفرح بالقفز والضحك والهتاف.

— الانغماس فى البرامج الخيالية، وهذا أمر طبيعى فى حياة الطفل النفسية فى هذه الفترة من العمر، فمن المعروف أن للتخيل نصيبا كبيرا فى تفكيرهم وتصوراتهم، ولوأن هذا التخيل قبل سن الخامسة يكون تخيلا غير مقيد بقيود الواقع وقوانينه أو مايسمى بالتخيل الابداعى، الا أن الواقع يبدأ فى الدخول فى تصور الأطفال وتفكيرهم بعد سن الثامنة بالتدريج، وخاصة بعد خروج الطفل إلى المجتمع الكبير، مجتمع المدرسة، وبعد أن يبدأ فى التكيف مع البيئة الاجتماعية ويتمثل قواعد المجتمع وأساليبه فى السلوك، وهنا يأخذ التخيل شكلا آخر فى انعكاسه على المستقبل.

وأيا كانت فوائد ومزايا هذه البرامج الخيالية عند الأطفال من حيث أنها تشبع لهم رغباتهم ويستطيعون تحقيقها فى عالم الواقع أولا، أو أنها تخلصهم - ولو وقتيا - من ميلهم للاعتداء الذى قد يراودهم بطريقة تعويضية ثانيا.. أو أنها تمدهم بخبرة متحررة قد

تفيدهم فى حياتهم الواقعية ثـالثا.. فإن البرامج الواقعية أيضا تعتبر فى غاية الأهمية بالنسبة لهم.

— التعرف على مايدور فى المجتمع المحلى والمجتمع العالمى: فهم يتابعـون بمثابرة فـائقة تطـور مجتمعنا الهائل فى كافـة المجالات، سواء التطور الصنـاعى والمشروعات الصناعيـة الكبرى، أو تطورنا العلمى والتعليمى أو تطورنا الحربى، أو رعايـة الدولة للشباب.. إلى غير ذلك.

كما ظهر حرص الأطفال على متـابعة البرامج التى تعرض عليهم قطاعات من الحياة فى الدول الأخـرى، فيتعرفون على الحياة بصفة عـامة فى هـذه الدول، كما يتعـرفون على نـواحى النشاط المختلفـة للتلاميذ الذين فى مثل سنهم فى الدول الأخرى.

— التعلم واكتساب الخبرات من التليفـزيون، ونقصـد بذلك أن الأطفال، فى كل مايشـاهدونه على الشاشة، سـواء كان ذلك تمثيلية عربيـة أو حلقة أجنبية مسليـة، أو حلقة أجنبيـة تعتمد على العنف والجريمـة، أو جنـة الأطفـال أو مسرحيـة، فإن الأطفـال يتعلمـون الكثير من كل هذه الأنواع المختلفة من البرامج.

— قضاء أوقات الفـراغ، والذين يذكرون هـذا السبب يرون أن أى بـرامج دون أى هـدف سـوى قضـاء وقت الفـراغ (مهـرجـان التليفزيون الدولى الخامس، التليفزيون والطفل، ص ١٠).

وإذا كانت حكـايات أسلافنا لأطفـال الأمس تحوى ما (يخيف) و(يرعب) مثل (أمنـا الغولـة) و(أبو رجل مسلوخـة) و(ذات الرداء الأحمر) و(الأميرة والأقـزام السبعـة)، وتقـدم صـورا تبث الـرعب والفزع والعـدوانية والعنف، فهل العنف والعدوان اللذان يعـرضان فى التليفـزيـون أشـد ضررا على الأطفـال ممـا كـانـت عليـه تلك القصص.

تشير بعض البحوث العلمية إلى أن الإجابة هى بالإيجاب (محمد

عمادالدين إسماعيل، ص٣٣٦)، فالصورة الحية كاملة الألوان، والقريبة جدا من الواقع الذى تصوره شاشة التليفزيون، هى قطعا أشد تأثيرا بكثير من الكلمات.

ومن ناحية أخرى فإن المدة التى يقضيها طفل ماقبل المدرسة أمام التليفزيون هى أطول بكثير من المدة التى يقضيها الوالدان معه فى سرد القصص.

وأخيرا فإن عدد المناظر التى تصور العنف والعدوان بالتليفزيون أكثر بكثير مما تصوره القصة المروية.

وهناك حقيقية هامة لابد من الإشارة إليها، وهى أن معاقبة المعتدى أو مرتكب العنف فى نهاية فيلم ملء بالعنف والعدوان، لايعنى شيئا بالمرة بالنسبة لطفل ماقبل ا لمدرسة، ذلك أن الطفل فى هذه المرحلة لايستطيع أن يتتبع سياق القصة، وإنما يدرك المشاهد كما لو كان كل منها مستقلا عن الآخر، لاتربطه به رابطة. ولقد أوضح بعض الخبراء أن عقاب النموذج المعتدى فى نهاية القصة التليفزيونية لايحدث أى فروق فى سلوك الأطفال المشاهدين لهذه القصة عن سلوك أولئك الذين لم يشاهدوه. وعلى هذا الأساس فإن أجازة مثل هذه الأفلام (أفلام العنف والعدوان) على أساس أن النموذج العدوانى فى النهاية يلقى العقاب جزاء على مافعل، أمر غير سليم من الناحية السيكلوجية إذا كان الأمر يتعلق ببرامج الأطفال فى هذه المرحلة.

ولعلنا فى نهاية هذا الموضوع نستطيع أن نقدم المقترحات التالية مع بعض الملاحظات:

— برامج الأطفال بوجه عام تقدم للطبقة فوق المتوسطة وقلما تتوجه إلى جماهير الأطفال العريضة فى الريف والأحياء الشعبية، لذا يجب الانتباه إلى تلافى هذا الأمر.

— الزمن المخصص لبرامج الأطفال مازال قليلا قياسا إلى

وزنهم فى التركيب السكانى، كذلك يجب أن تـزداد ساعات الإرسال الخاصة بالأطفال فى عطلة الصيف على وجه الخصوص.

— تغيب الفلسفة الشاملة والخطة المتكاملة التى يجب أن تظهر مـلامحها فى التنفيـذ، لا على الأوراق فقط، ذلك أن كل البرامج تهتم بكم المعارف المقدم على حساب كيفه.

— العناية بتربية الـذوق الفنى قاصرة جدا، لذلك يجب الاهتمام والعناية بالفن والنحت والموسيقى.

— ضرورة البعـد عن خـداع الطفل، ويحسن تصـويـر الحيـاة الواقعيـة بما فيها من قسوة وحـلاوة، وجمال وقبح، حتى لايصاب الطفل بخيبة أمل عند تعامله مع الواقع.

— غيـاب الأغنيـة الشعبية المصريـة واضـح وظـاهـر، فـالطفل يحتاج إلى أغـانى شعبية فيهـا حركـة ونغمة وتمثيل بـدلا من هذا الانحســار أمام مـد الغناء الأجنبـى الذى يجعل الطفل مغتربـا عن الذوق القومى والوطنى والمحلى.

— ضرورة إشراك رجـال متخصصين فى التربيـــة وعلم النفس والفنون يساعدون فى الإشراف على برامج الأطفال لتؤتى ثمارها.

رقم الإيداع ١٠٩٩٠ / ٩٥
الترقيم الدولى
I. S. B. N 977 - 08 - 0270 - 0